

سان أنطونيو

مكتبة

الاب فرستوا



مَكِّيَّة الأَبِ فَرَنْسَوَا

سكان أنطونيو

مكتبة الأب فرسوا

شماره ٥٥١٢



مكتبة
فرسوا

LE COUP DU PÈRE FRANÇOIS

by

SAN ANTONIO

ترجمة

بسام حجار

ARABIC EDITION 1993

© SAWT AL-NAS

P.O.Box:7038 - Limassol

CYPRUS

P.O.Box:113/5796 -Beirut

LEBANON

ISBN 1-85513-174-9

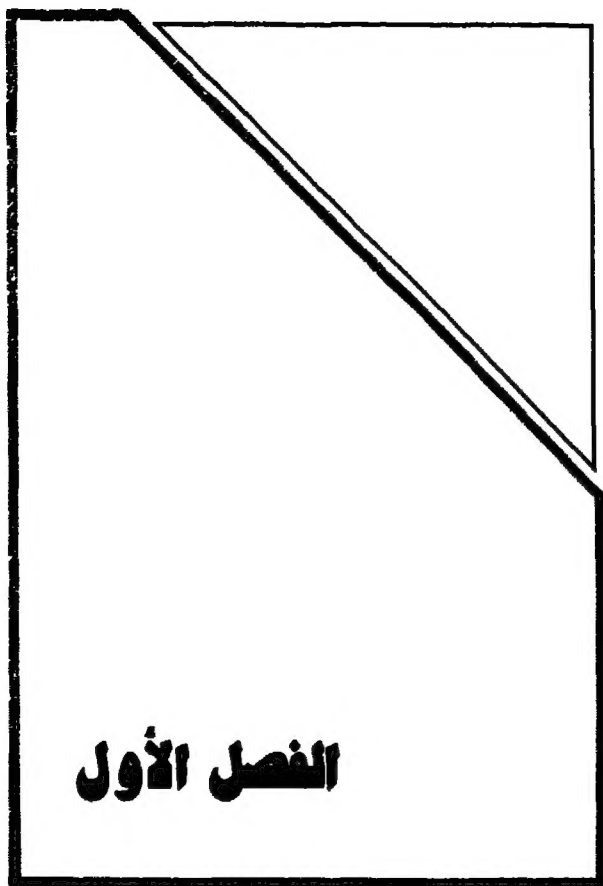
جميع الحقوق العربية محفوظة



الطبعة الأولى، تب/المنسوخ ١٩٩٣

الغلاف، تصميم رملة شماعة

رسوم، شيطون كوريغان



كان الصوت باهتاً ورخواً تمازجه نبرة التشكي. فلننت في البداية
أنه صوت بينو.

- آلو أود أن أكلّم الكوميسير سان أنطونيو.

- أنا الكوميسير.

- قل لي يا حضرة الكوميسير، أما كنت في صباك تلميذاً في ثانوية
سان جرمان أون لاي؟

فدفعني هذا التلميح الى ماضي الباهر في المدرسة للتنبه
والاصغاء.

- بالفعل، لماذا تسأل؟

- أنا موربيون، ألا تذكرني؟

مكنتُ ذاهلاً وقد استدارت عيناى مثل فطيرتين، وعبقتُ فيهما
نسمة حنين الى قاعة الصفّ امتزت لها أطراف منخري.

- موربيون! موربيون العزيز الرقيق، الطيّب! مُستحيل! كيف
حالك يا أستاذي العزيز؟

- في حالٍ أفضل، أجاوب، ما جعلني أدرك، بلا جهد كبير، أنه
كان متوَعَكاً.

- وائي طالع سَعْدٍ جعلني أَسْتَحَقَّ منك هذا الاتصال؟
فتنحّح قليلاً. كانت عادةً لديه. فبعد كل خمس أو ست كلمات
يتلفّظ بها، كان يُصدر مثلاً هذا النقيق المضحك من جوزة عنقه.
- قل لي يا صديقي الصغير...

صديقي الصغير كما في السنوات الغابرة، في قاعة الصف.
فسرى نغم كآبة رقيق في أوتار قلبي.

- قل لي يا صديقي الصغير، أيجد شرطي بمتل شهرتك وانهماك
متسماً لدقائق معدودة يكرّسها لرجلٍ عجوزٍ مثلي أبلى العفُن
نصفه؟

قهقهت ضاحكاً.

- يا له من سؤال! متى المُلتقى؟

- متى نلتقي؟ قال مصحّحاً. لطالما امتلكت أسلوباً جميلاً في
الكتابة أما كلامك فيرثى له يا انطوان!

ثم رَدَ على سُؤالي:

- في أقرب وقت ممكن، قال موديبون راجياً.

- أتريدني أن أذهب اليك؟

- ما كنت لأجرؤ على مثل هذا الطلب لولا أنني غادرت المستشفى
لتوي وأشعر أن ساقَي واهنتان.

- لا بأس، اصلُ خلال دقائق، أعطني عنوانك

كان مورييون يقطعُ شارع «لا يومب». ومع ذلك، أقسمُ لك أنَّه لا يشبه سكان الدائرة السادسة عشرة^(*).



.. السادس الى اليسار! تَبَرَّتْ حاجبَةُ المبنى، وهي امرأة ضخمة الجثة يبدو وجهها كأنها قد حُلقت ذقنها حديثاً.

دخلت الى المصعد وما إن استسلمتُ لصعوده بي حتَّى رحت استجمع ذكرياتي استعداداً لمؤتمر صحافي.

لم أعلم قط من أين جاءت تلك التسمية المهنية. زملاء لنا، أكبر سنّاً، لقّبوه بهذا الاسم، وأراهنكم أنَّه إذا كان لا يزال في التدريس فلا بدّ أن لقبه ما زال مورييون. إذ ليس صحيحاً أن المدونات هي التي تجعل دوام التاريخ ممكناً!

ما أن أغلقت بَوَايَة المصعد خلفي حتَّى فتح باب عند صحن الدرج وبدأ منه استاذي العجوز مورييون. والحقُّ يُقال أنَّ الأعوام الخمسة عشر التي انقضت منذ تركي المدرسة لم يكن وطؤها سهلاً عليه. فما إن طالعتني سحنته حتَّى أدركت كم يخطيء الأولاد في تخمين أعمار الكبار. ففي ذلك الوقت كنت أحسبُ مورييون عجوزاً. وأصنّفه من الأجساد المتداعية. والحقيقة أنَّه لم يبلغ حدّ التداعي إلّا اليوم، ذلك الجدِّي البائس.

صلحته التنظيفة المحدثبة تتفضّن في مواضع كثيرة. أما أطرة

(*) حي ارستراطي في باريس.

شعره الأشقر فقد استحالت رماداً أو بلونه. ثقلت أجفانه وبَدَل
نظاراته ذات الاطار المذهب بأخرى من قشرة العاج. له رأس بحجم
قبضة اليد ويبدو أكثر شحوباً من دعوة لعرس

شيء واحد لم يتبدّل فيه: زَيِّه المضحك. إذ يَحْسَبُ ناظره أنه لا
يزال يرتدي بنطاله الداكن ذا الثنيات العريضة، وياقة السلولويد
البيضاء إِيَّاهَا فوق قميصه المرتقّ الأزرق وربطة العنق الرفيعة
السوداء وردفيه الطويلين اللذين يصلان الى أظافر أصابعه.

— إذأ، ها أنتَ يا صديقي الصغير! قال بصوته المخفض المتأني،
لقد تبدّلت كثيراً منذ أيام المدرسة!

صافحت يده الصغيرة الدافئة ثم دخلت الى منزله.

كان الداخل أشبه بما يفوق الوصف. إذ ينبغي أن يكون المرء
مريباً عجوزاً بالفعل لكي يلوذ بمثل هذا الوكر. يكاد الاثاث أن
يطغى منهاراً تحت ثقل الكتب. كتب مكسّسة على الأرض، واكداس
أخرى في الرواق. أشبه بنقرس فتاك يلتهم كلّ شيء. أطمأئ مهملة
هنا وهناك، ثياب داخلية متسخة، أوعية ملطخة وديقة تتكدّس في
مواضع قد لا تخطر في بال أحد.

ولكن ما هو أسوأ من الفوضى، والذي يصدم الزائر بعنف، هو
الرائحة. وسرعان ما فطنت لمصدرها إذ رأيت نصف دزينة من
القطط تقعد هانئة فوق فضلاتها الموقرة.

— البيت لم يُنظف منذ بعض الوقت، أنذرنني مورييون، لذلك
أرجو المذرة. لقد عدتُ هذا الصباح من المستشفى.

— ما الذي أصابك؟

- انسداد حاد في المسلك البولي.

- وهل كان الامر موجعاً؟

- في البداية لا تشعر بشيء، ولكن الأعراض سرعان ما تظهر تدريجياً. تبدأ بخدر بطيء وكامن في المسلك ورأس القضيب، ثم سرعان ما يؤدي ذلك الى انخماص القضيب كلياً. وعندما أجرى البروفسور بانديمو الجراحة كنتُ على وشك أن أصاب بما يسمى القذف المقلوب.

وفيما يواصل الشرح حول أعراض مرضه، كان موريبيون يُخلي إحدى الكتب من الكتب والقسط والبراز.

- تفضل اجلس يا صديقي الصغير. هل أقدم لك شرباً ما؟

- بكل سرور، قلت مرحباً.

وانفتلتُ مثل مهرجان مائي يُقام على القناة الكبرى

- لو علمتُ أنك ذات يوم ستقدم لي كأساً، أقول.

- وأنا أيضاً، يجب موريبيون مبتسماً، لو توقعتُ أن يصبح أكثر تلاميذي طيشاً أحد المجلّين في سلك الشرطة. كيف اهتديت الى هذه المهنة؟

- خلال الاستراحات المدرسية كنا نلعب لعبة الدركي واللص، وكنتُ ألعبُ دائماً دور اللص، لذلك أردت أن أصبح شرطياً رغبة في التغيير...

يبتسم.

- اتحسب أنها مهنة، أقصد ما تفعله؟ قال مُتَعَجِّباً.

- ليست تماماً، ولكنّها تسلية لا بأس بها. تسلية ناجازف فيها بحياتنا.

امتدى مورييون الى كأسين متسخين وقال مظهرأ لامبالاته، الحياة، يا صديقي الصغير، ليست بالصفقة الكبيرة. فهي مُستحيلة على هذا الكوكب إلا بين عشرين درجة تحت الصفر وأربعين درجة فوق الصفر. والحال أن الشمس التي تضمنها لنا تثبت خمسة ملايين درجة! عندئذٍ تترك مقدار هشاشتنا. يكفي أن تقوم هذه اللعينة بانزلاقة طفيفة نحو هذه الجهة أو تلك فيستحيل كوكبنا العتيق الى جليدٍ أرماد.

يسحب قتيئة من سلّةٍ تحتوي عدداً من الأشياء الغريبة ويملا كأسينا.

كنت اودّ أن أمسح حافة كأسي بمنديلي قبل أن تمسه شفقتاي،
إلا أن مورييون عاجلني بالنخب.
- نخبك، يا صديقي الصغير.

تبادلنا الانتخاب وتمالكت نفسي. وأنا أقطب حاجبي باشمنزاز من مذاق الكأس.

- ليس رديئاً، اليس كذلك؟ يسأل مورييون.

- بل فاخر، قلت مزيداً، وما نوعه؟

يُدير القارورة نحوي. وعندها فقط أدركت أنّه سائلٌ تنظيف.
فلفتُ نظر استاذي العجوز الى حقيقة الأمر فأجاب بهز الكتفين.

- لا يمكن لهذا الشراب أن يضرّ بنا. وكرع كأسه جرعةً واحدة.
فأخذت أتساءل حول غرض مورييون من استدعائي. فإلى الآن لم

يكلّف نفسه عناء الافصاح عن غرضه . وعندما لاحظت أنه يتجاهل الموضوع ، بادرت الى سؤاله فارتسمت على وجهه ابتسامة تواضع .
- إنني أدبيّ الميول ، ومع ذلك لا أحبّ الغموض .

ولمّ زراً من ازرار قميصه وقع للتوّ من قميصه معبراً عن نزعته
الانفصالية عبر تدحرجه الرشيق فوق الأرضيّة وتابع قائلاً :

- عندما عقدت العزم على دخول المستشفى ، يقول مشرّح
باسكال متمتماً ، أوكلتُ صديقّةً عجوزاً برعاية القطط ، ثمّ أوصدتُ
باب شقتي ودسستُ المفتاح في جيبي ...

ويرمقني كأنّه لا يريد المتابعة ..

- إذأ؟ ورحت أحثّه على المتابعة مدفوعاً بفضولي .

وفجأة يمتلئ نظره الكئيب ببريق سذاجة لا توصف .

- إذأ ، يا صديقي الصغير ، لقد أمضيتُ شهرين كاملين طريح
الفرش في المستشفى ولم أعد الى وكري هذا إلّا هذا الصباح . وقبل
ذلك ذهبت الى صديقتي لاستعادة رفاق عمري ، يقول مشيراً الى
الكائنات ذوات المخالب ! ونصل جميعاً الى البيت مُبتهجين بلقائنا
بعد انقطاع ، فلا اكاد أدخل حتّى تملكني الدهول ...

- ماذا؟ صرخت سائلاً .

يرفع يده كما كان يرفعها في الماضي لفرض السكوت .

- شيء ما غير محدّد ، أقلقني .

- ماذا؟ عاودت سؤالني وأملي أن يكون بنبرة أقرب الى صوت
الضفدع منها الى صوت الغراب .

- تكتكة، يُجيبني سريعاً بالمثل.

- قنبلة؟ أسأل راجياً.

وعند طرف ردفه تعرّف أصابعه طقطقة رتيبة وعصبية فوق المنضدة.

- لا: الساعة!

ويُشير بيده الى ساعة صغيرة من طراز نوشاتل فوق حافة الموقدة.

- وإذا؟ أقولُ فاعراً فمي.

تمتلئ عيناه بنظرات الاشفاق.

- لك سمعة مرموقة في سلك الشرطة ولا تستتيرك مثل هذه الأعجوبة؟ يقول موريون هازناً.

- ولكن أي أعجوبة؟

- هذه الساعة الدقاقة يجب أن تعبأ كل ثمانية أيام. وباب شُقتي لم يُفتح طيلة شهرين، ولا يُعقل أن تدور الساعة كل هذه المدة، فكيف حدث ذلك؟...

- أتعنقد أن أحداً ما قد تسأل الى شقتك أثناء غيابك؟

- ليس هذا المرجح. الديك تفسر آخر؟

- ربما، أجيّب. لنفترض أن ساعتك قد توقفت بعد رحيلك بقليل، ثم عاودت دورانها عند عودتك...

يهزّ كتفيه الهزليتين.

- يا صديقي الصغير، ما تقوله هو محض تشكيك بالقدرات

السويسرية، وما أقوله محض تشكيك بالشرطة. إذاً أنت تعتقد أن
ساعاتي تتوقف عن الدوران فور مغادرتي البيت ثم تهرع لاستئناف
دورانها فور عودتي؟ أمرٌ غريب فعلاً!

إنه يضجّرني، هذا الموربيون، بسخريته اللاذعة كمسطرة
الحساب.

- اسمع يا أستاذي، أقولُ في هجومٍ مضاد، يحدث أن تتوقف
الساعات عن الدوران، اليس كذلك؟ لنقل أن ساعتك أصيبت
بتوقفك. فتتوقف عن الدوران. ثم تعود من المستشفى، والقطط
المفرطة في تجولها من حولك، على ما أرى بعيني هاتين، ترتطم بها
فور عودتك فتكون الصدمة الطفيفة كفيلاً بإطلاق دورانها من
جديد. حُجة مقنعة!

- لا

- لا

- لا

- بوركو^(*)؟ على حد قول الانكليز عندما يأنفون استخدام كلمة
بيكور^(**)؟

بدأت عينا موربيون تتقلبَان في محجريه.

- لأن الساعة كانت تشير الى الساعة المضبوطة، يا صديقي
الصغير. لا بد إذاً أن تعترف أن المصادفة تفرطُ في أعاجيبها حين

(*) Pourquoi = لماذا.

(**) because = لأن أو بسبب.

تعيد الساعة المعطلة الى دورانها في التوقيت نفسه.

- بالطبع، يا حضرة الأستاذ. إذاً لننظر الى المسألة من وجهة مختلفة، لقد دخل أحدهم الى شقتك أثناء غيابك. ولماذا لا تكون الحاجبة؟

- لا تملك مفتاحاً للشقة. ومع ذلك سألتها، الأمر الذي أغضب امرأة بوقارها. لا، يا صديقي العزيز، إن حارستي الشرسة لم تطأ هذا المكان.

- هل لاحظت أثر كسرٍ وخلع؟

- لا.

- هل فقدت شيئاً من مقتنياتك؟

فبهزّ كتفيه الهزيلتين.

- وما عساهم يسرقون؟ لا املك إلا الكتب.

يسكب لي جرعة أخرى من السائل المنظّف، وبحركة عفوية أشربها.

- لنفكر قليلاً يا حضرة الأستاذ، أقول: لماذا، بحقّ الشيطان، قد يتسلّل أحدٌ ما خلسةً الى شقتك؟ أيكون دافعه الوحيد هو أن يعبّئ ساعاتك؟

- بالضبط، هنا يكمن اللغز! يقول موربيون وقد يُعجّ صوته فجأةً. إن علامة الاستفهام هذه هي التي دعنتني للاتصال بك، يا صديقي الصغير. لماذا جاء أحدهم الى منزلي أثناء مدّة غيابي؟ ولماذا عمد الى تعبئة ساعتني؟

الا تجدون ان الموقف طريف يا أصحاب؟ يتّصل أحدهم

بالشرطة ويقول: «أريد أن أعلم مَنْ عبَّأ ساعتني أثناء غيابي في المستشفى!».

- من يفعل ذلك يستحق أن يوضع في قفص للطيور وعرضه للعموم عند رصيف «لا ميغيسوري»، اليس كذلك؟

- ألم تعثر على أي أثر مشبوه؟ سألته مراعاةً للشكليات.

ينبغي الاعتراف أن الآثار المشبوهة في مستودع الحاجيات هذا قد لا تسترعي الانتباه، كما لا يسترعي انتباه المارة وجود الحرس أمام قصر الاليزيه.

- لا، لم أعثر على شيء، يقول موربيون مبتسماً ولا بدَّ أنه فطن لما عقدته بنات أفكارني من التشبيه، لا، كانت هذه الفوضى كما تركتها، لم تمسها يدٌ أو رجل.

- وهل عبَّأت الساعة؟

- أجل، كيف انتبَّت من الأمر. لم يدور مفتاح التعبئة سوى بضع دورات. وحسب تقديري أنها عبَّئت منذ يومين أو ثلاثة.

- أسمح لي بتفقد شفتك؟

- إفعل ما يحلو لك!

يتألف «قصر» موربيون من حجرتين ومطبخ وحمام. وثمة كتب مكتوسة في المظلم فوق طاولة المطبخ ورفوف المدخل وجدران المرحاض والمغسلة. تفتحصت الأرض والجدران والسقف. ولم أتبين شيئاً. إنه الإخفاق، يا إخوتي. والكلام في سرِّكم، لا بدَّ أن الأب موربيون بات حافيّ الذهن. فلطالما كان استاذنا العزيز شارب الفكر، خلق الطاسة، فلقد رأيته، بأم عيني، مراراً وقد زُرَّ فتحة

بنطاله كلَّ نَزٍّ في عروة الآخر. وعندما يخطر له أن يملا قلمه بالحبر تكون المسخرة، لأن المحبرة تتدلق فوق رزمة من المسابقات. ورايبي أنه حين عاد منذ بعض الوقت الى منزله عبأ ساعته ساهياً عما يفعل، ويعد ثوانٍ نسي تماماً وراح يفسر الامر بأنه أعجوبة! يا لك من رجلٍ ظريف يا مورييون، دعك من كل هذا! رجلٌ بمثل سنك، لا بد أن الحياة قد أصبحت بالنسبة لك ذات أبعادٍ أخرى.

بعد التثبُّت من أن الأمور على خير ما يرام في جُحر هذا العجوز الخرف، بدأت أهمُّ بجرّ نفسي الى الخارج، ذاهباً كما جئتُ، بخفي حنين.

- سافكر ملياً في مشكلتك، يا حضرة الأستاذ، أقولُ واعدأ.

فيرمقني بنظرة شك.

- يا صديقي الصغير، إنني أعلم بالضبط ما يدورُ في خَلْدك.

رعشة خفيفة تسري من نعلَي الى نخاعي مروراً بأسفلِ ظهري.

- حقاً! أقولُ بانساً.

فيطلق مورييون ثغاء أشبه بضحكة طفلٍ حزين.

- تقول في سرك الآن إنني رجلٌ خرف، يضيف مورييون قائلاً،

وتقول في سرك أيضاً إنني عبأت الساعة بيدي ثم سهوت عما فعلت، اليس كذلك؟

- لا، على الاطلاق، أقول مُعتزساً محاولاً أن اخفي ذهولي.

- اسمع يا أنطوان، قال مورييون بنبرة توبيخ، ما زلت لا تجيد

الكذب كما كنت في صفرك. الضفدع الذي وضع في محفظتي، كنت أنت الفاعل، أليس كذلك؟

- ولكن يا حضرة الأستاذ، أقول مُتلعثماً، مُستعيداً بذلك روحية التلميذ الأحمق.

- المسألة قديمة، وانتهت بتقادم الزمن، يقول مورييون متنهّداً،
إذاً اعترف!

- حسناً، كنت أنا الفاعل.

- والسائل اللاصق على الكرسي؟

- رُبّما كنتُ أنا الفاعل أيضاً، أقول معترفاً.

- وسائل المبتلين الأزرق في معاة اللوح؟

- ما عدتُ أذكر، يا أستاذ.

- أما أنا فأذكر جيّداً: لقد أفسدت بذلتي.

وراح يضغط باصبعه الممدودة على صدري كأنها مخزن.

- والآن إعرف أنك تحسبني رجلاً خرفاً؟

- ابدأ، على الإطلاق، يا حضرة الأستاذ. فقط احسب أنك كثير

الشروء. ألا تذكر ذلك اليوم حين شرحت لنا درساً للصف الثاني

المتوسّط وقد نسيت كلياً أننا في الصفّ الثانوي الأول؟

- طبعاً أذكر، يغفم مورييون قائلاً.

- ويوم ارتديت يافتك المستعارة ومعطفك دون أن ترتدي

قميصك؟

- أحدث ذلك فعلاً؟

— يا أستاذ، عندما يسهر المرء عن ارتداء قميصه، يُصبح من الممكن أن ينسى أنه عباً ساعته بيده. هيّا، لا تقلق. المهم أن شيئاً من مفتحاتك لم يُفقد ومددت له يدي قائلاً:

— سأغادرك الآن. وحالما تعترضك أي مشكلة لا تتردد في الاتصال بي. لقد سُررتُ بلقائك. وللمناسبة أما زلت تزال التدريس؟

فيفغمز بطرف عينه ويقول:

— لقد تقاعدت منذ أربع سنوات؛ إنني أعطي بعض الدروس في إحدى المدارس الداخلية الدينية؛ لكي لا أفقد لياقتي.

— ملحدٌ عتيق مثلك! أقول مُستهجناً.

فيرمقني بعينه المكّارة.

— أطمئن، معظم دروسي تدور حول فولتير وروسو وكارل ماركس.

تبادلنا تحية الوداع وهرولت مسرعاً الى مقرّ الحاجة فرايت هذه السيدة المقدّامة منهمكةً بتنظيف زجاج حجرتها بواسطة خِرقَةٍ من جلدٍ جَمَلٍ ميت. فبادرتها بجفاء.

— أخبريني يا سيّدتي العزيزة، اتعلمين أن الأستاذ موربيون يرتاب بأن شخصاً ما قد تسلّل الى شقّته خلال فترة غيابه؟

— اعلم، تجيبُ المرأةُ بنبرةٍ متعجّفة.

— أود الاستئناس برأيك أنتِ حول هذا الأمر.

— وهل أنت أحد أقرّبائه؟ تسأل.

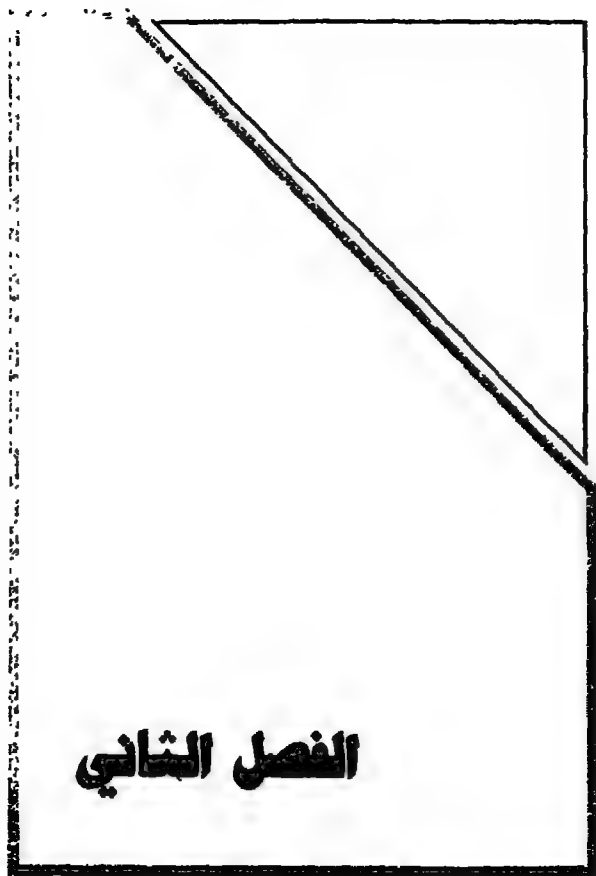
— لا.

- إذاً هذا هو رأيي!

فتضع سبابتها على صدغها وتبرمها مرتين كأنما تجرّب مفتاحاً
في قفل خزانة جلطاتها الالتهابية.

- شكراً على المعلومة، أقول بنبرة تهذيب مفرط.

وأغادر المبنى مغتبطاً إذ تنشقت رثائي مجدداً هواء باريس بعد
أن اتخمتُ بالمناخ الموبوء في دارة مورييرون.



سيّارتي الجكوار طراز E مركونة على بعد بضعة أمتار من
المبنى. وبينما كنت أصعد الى مقعدي خلف المقود، رفعت عيني
المتوقّدتين ذكاءً نحو نوافذ دارة موربيون. لقد أثارني هذا الرجل
الطيب الذي انبثق فجأة من الماضي ما لا يسعني وصفه من الاوتار
الحساسة - أاعترف لكم - حتّى اغرورقت عيناى بالدموع.

كان وجهه الممتّع الصغير يرسم ظلّاً أشبه بلطخة خلف الزجاج
المتسخ المغطى بنسيج رقيق. أشرت اليه بتلوّحة وداع لا يراها
بسبب نظاراته. أدّرت المحرّك فيصهل الاثنان والعشرون حصاناً
تحت غطاء السيارة. ولكنني في لحظة الانطلاق انتابتنى رعدة
مباغطة، ففي اللحظة التي كنتُ فيها ألوح بيدي مودّعاً موربيون
كما المحدث أعلاه، تلقّى وعيي المتيقظ أبدأ لما يدور حولي، إشارة
تفصيل غريب. وفي غضون عشر الثانية انتقلت الإشارة الى ذهني.
فأوقف المحرّك، وألقيت نظرة مُتمعنة في اتجاه الطبقة السادسة
فرايت قطعة شريط أبيض وقد ربطت بحاجب النافذة تلوّح مطمئنة
على وتائر النسائم الربيعية. فأمعنت النظر قليلاً ثم تاه نظري الى
الاعلى، الى ما فوق السطوح، الى الغيوم الحدياء التي تجعل الأفق
بلون الجنازة.

وهناك اقرا الحقيقة. مورييون لم يخرف. فما الذي جعلني
مقتنعاً بصدق روايته، فجأة، بعد أن حسبت اقوال الاستاذ
العجوز مجرد تخريف عجائز؟

غادرت سيارتي كمعتوه وصعدت مجدداً الى شقة مورييون.
ولاجده هناك على العتبة كأنه يتوقع عودتي.
- كنت أعلم أنك ستعود؟ قال لي.

- حقاً يا استاذ؟

- لاطالما عرفتكم كما أنت، يا أنطوان. قررت الفعل الأول عندك يكون
خاطئاً على الدوام. ذلك أنك تبادر الى الفعل ثم تفكر ولم تهبط ست
طبقات إلا وقد أدركت أن الأب مورييون قد يكون شارداً ذهنياً إلا
أنه ليس خرفاً!

وبدلاً أن أجيبه، تقدمت مباشرة نحو النافذة. افتحتها وانتزع
الشريط. انه شريط عادي من النوع الذي يستخدمه باعة الحلوى
لتزيين علب زبائنهم.

- هل أنت من ربط الشريط بحاجب النافذة، يا استاذ؟

يهز كتفيه.

- اتمارحني؟

عندئذ لففت شريط الحرير حول إصبعي ولاحظت أنه ليس
متسخاً جداً مما يؤكد أنه وضع هناك منذ وقت قريب.

يحتضن مورييون قطعاً رمادياً كبيراً ويداعبه بحنودون أن يحيد
بنظراته عني.

- هل شاهدت هذا الشريط من الأسفل؟

- أجل.

- أرايت يا صديقي الصغير، أنا واثق من أن أحداً ما قد تسلّل الى شفتي. ليس فقط بسبب الساعة. بل بسبب الرائحة، فما إن دخلتُ الى الشقة حتّى طالعنتي رائحة غريبة... غير مالوفة.

- ذلك أنّ القطط لم تزرع الغرفة ببرازها طيلة شهرين!

- لقد أدركت ذلك، يقول موربيون موافقاً، ولكنّ ما أقلقني هو شيء آخر. فما لفتني ليس غياب رائحة مالوفة، بل طغيان رائحة غير مالوفة. غير مالوفة و... كريهة. رائحة حريفة...

تنشّقتُ الهواء من حولي، ورغم أن جمهرة الضيوف من تلك القطط قد لوثت أجواء الشقة، فقد شعرت فعلاً أنني اشتّمُ أثرًا لرائحةٍ أخرى.. أثرًا لرائحة...

- يا أستاذ، اغمغم قائلاً. اعتقد أنك على حقّ... هناك رائحة بارود!

- بارود؟ يقول مذهولاً.

- على ما يبدو لي... إنها الرائحة التي أعرفها جيّداً.

تنشّقت من جديد. أهو تأثير مخيلتي؟ لا اعتقد.

يضع موربيون نظاراته.

- يا للطامة الكبرى، لو أن أحداً ما أطلق النار في شفتي لبدت الآثار واضحة، أليس كذلك؟

- ليس إذا جمعت الرصاصات الفارغة، يا أستاذي.

- ولكن... الرصاصات؟

- ربما أطلقت الرصاصات من شقتك على شخصٍ ما في الخارج.

تقدمت الى النافذة وأطلتُ على الشارع فكان ساكناً مغرقاً في هدوئه المعتاد.

- ولكن الطلقات النارية تُحدث صوتاً مسموعاً! يقول موربيون من ورائي.

- ليست مسموعة جداً إذا زُوِّدَ المسدّس الذي أطلقها بكاتم للصوت!

وتستكشفُ نظراتي المُحترفة الرصيف المقابل. وأرى بوابة ضخمة وقد غلّتها سارية بلا بيرق، وقد نُتِبت على قاعدة السارية قرص حديدي. من حيث ألق لا أستطيع تمييز الحروف المرسومة عليه.

- أوه مبنى سفارة يا سيّد موربيون؟

- لا، إنها القنصلية العامّة لدولة اليابان^(*).

- آه...

أجبل بصري متمعنّاً في واجهة المبنى. وأعترف انها بدت لي مجردة عن القبيّحات.

(*) ليس المقصود هنا اليابانيا برغم تشابه اللفظ (م. ح).

انها واجهة بناء باريسي من الحجر المنقوش، تتخللها نوافذ عريضة ذات مصاريع، وقد أغلق مصراعا إحداها.

- والقنصلية تقع في أي طبقة من طبقات المبنى؟

- الطبقة الثالثة، يجيب موربيون.

أي الطبقة التي أغلقت نافذتها.

هممت بالمفادرة ولكن شيئاً ما استرعى انتباهي، ولن أبوح به حرصاً على التشويق.

- ألا تملك منظراً يا سيد موربيون؟

- لدي منظر صغير يستخدم في المسرح.

- هلاً أحضرته لي؟

فيحك شحمة أذنه كمن يرضخ لأمر ويباشر البحث عن هذه الأداة البصرية الثمينة. يجدها في مطبخه داخل وعاء خزفي كتب عليه «طحين».

إنه منظر صغير صنعت أطره من قشرة الصدف، متواضع الأداء لكنه يقزّب المسافة بعض الشيء. فانهمك بمراقبة المصراعين المغلقين. ومن خلال الفرجات الأفقية بين الألواح، المنح بقة بيضاء في الداخل. فأبذل ما بوسعي مقلتي لتحديد هذه البقعة، ويحالفني النجاح. إنها مربعة وتحمل القسم الوسطي من الأطار. لا مجال للخطأ: إنها قطعة كرتون وضعت في مكان لوح زجاج مكسور. ولن يدهشني أن يكون لوح الزجاج هذا قد تحطم وتناثر بفعل طلاقة واحدة أو بضع طلاقات.

أعيد المنظار الى موربيون.

- هل توصّلت الى شيء ما يا صديقي الصغير؟

فيخبره صديقه الصغير بما توصّلت اليه. فيهرّ العجوز رأسه مرتين متتاليتين ما يعني لديه أنه استغرق في تفكير عميق.

- إذا أنت تفترض أن شخصاً ما قد تسلّل الى شقتي لكي يُطلق الرصاص على القنصلية في المبنى المقابل؟

- بالضبط، يا أستاذ. فثمة من علم بغيابك عن الشقة فدخل اليها وكَمَنَ فيها نظراً لموقعها الاستراتيجي.

- أوتعتقد أن الفاعل قد قتل أحداً ما؟

- ربّما. أعتقد أنك وقعتَ على قضية غريبة.

يمكث موربيون ساكناً. انه فيلسوف عجوز لا يرى في الحياة إلا عطلاً «زائفة» في يوم ممطر. والبشر، كالتلاميذ، يحتشدون تحت سقيفة يرتعدون برداً ويراقبون انهمار المطر بانتظار العودة الى أقبيتهم، تحت الأرض.

- والجاني هو الذي ربط الشريط وعبّ الساعة؟

- على الأرجح.

- أيامكانك تفسير هذين العاملين الغريبين بعض الشيء؟

- ليس بعد، يا أستاذ، ولكن قد أستطيع لاحقاً.

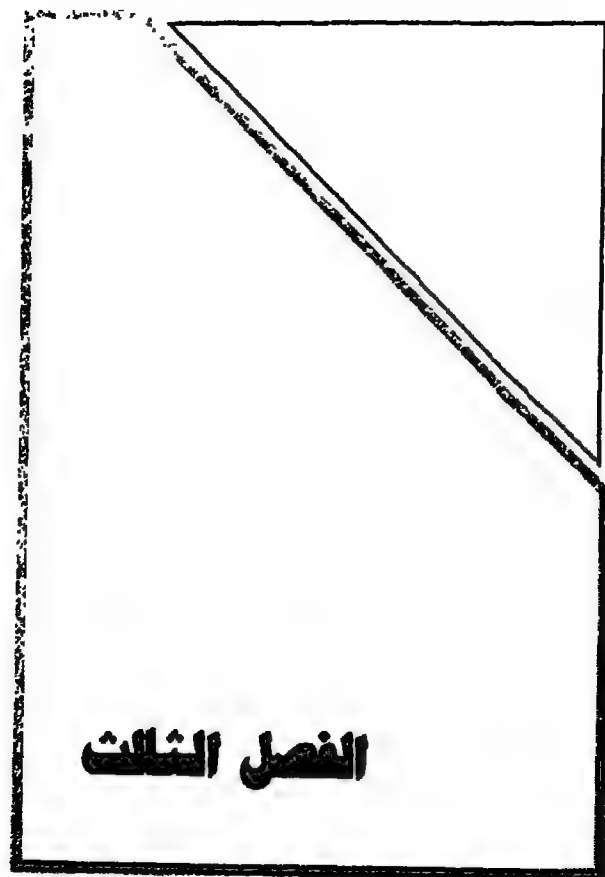
وأمّد له يدي مجدّداً.

- والان أغادرك. أرجو منك أن لا تطلع أحداً على هذه القضية.

- ماذا ستفعل؟

— سافكر.

لم تفاجئه نزعتي الاقتضائية. فاحتضن أحد قططه بين ذراعيه
ورافقني الى العتبة مداعباً فروة ذي الخالب.



أصغى العجوز الى كلامي دون أن ينبس ببنتِ شفة. مستقيماً
في جلسته، يدها مبسوطتان فوق الورق النشاف وعيناه بلونِ بحار
الجنوب؛ يبدو مُستغرقاً في شرويه.

- إنه أمرٌ مثيرٌ للاهتمام، يقولُ في آخر المطاف. انت ترى إذاً أن
أحداً ما قد أطلق النار على نافذة القنصلية؟

- أجل، يا سيدي المدير.

- لم نبلِّغ بأي شكوى... أنت تعلم جيداً أن علاقتنا مع الابانيا
ليست في أفضلِ حال؟

أحاول أن اتتبع تعرجات أفكاره.

- أعتقد أنها محاولة اغتيال سياسية؟

- أعتقد.

- يفضل جماعة القنصلية أن يتكتموا على الامر؟...

- والبرهان...

يسود بيننا صمتٌ أطول بقليل من لفيفة شريط لاصق. ثم يبدأ
الحيزيون بعزف أصابعٍ متفردٍ على الطاولة.

- عليك أن تتولى القضية يا سان أنطونيو. ولا تخذلني.

- بأي صفة يا سيدي المدير؟

واقولُ هذا لأحبه على الردِّ لأنني أعلم سلفاً بماذا سيجيب.
وبالفعل لم يجعلني أنتظر الجواب طويلاً.

- بصفة غير رسمية طبعاً. ولكن، أطلعني على المستجدات دائماً.

- سمعاً وطاعة، أيها الرئيس!

- وأغادر مكتبه بعد تحية شبه عسكرية. فيصفق باب مكتبه
المبطن بالجلد قفازي كأنه يحثني على الحركة.

أعودُ إلى داري مُستغرقاً في التفكير كمنحوتة رودان. وأجد بيرو
وبينوش يلعبان البوكر ويحتسيان الخمرة. لقد وصلت في الوقت
الذي يحقق فيه السمين بكاريه دام أرباحاً ويكاد يقفز فرحاً.
- لطالما كانت الشقيقات الصغيرتان جالبات حظي، يؤكد الرجل
البدن.

ودون أن أعبر لعبتهم أي انتباه، أرفع سماعة هاتفي لاتصل
بالمختبر. ويردّ مانيان.

- قل لي يا صديقي الصغير، أبادره القول، مُستعيراً عبارة
موربيون، أليس في فريقكم مَنْ يستطيع تركيب لوح زجاج؟

يربكه سؤالي.

- يركب ماذا؟

- لوح زجاج لنفاذة مكسورة. إذ ينبغي قطع الزجاج وفق

مقياسات دقيقة ثم لصقه ... الخ. باختصار، ينبغي أن تكون له
خبرة ودراية في مثل هذه الأمور.

يطلق سانيان من فمه صوتاً يُطلقه آخرون عادةً من موضع آخر.
- لا، ليس في عداد فريقَي أي زجاج ...

- يا لخيبة الأمل!

- ليس بإمكان المرء أن يُجيدَ صنع كل شيء، يُجيب الأصهب
معتزلاً.

اضع السماعة. وعندئذٍ يلتفت بينو المحترم نحوي.

- إذا كان الأمر يعينك بشيء، يقول، فاعلم أنني أجيد تركيب
الواح الزجاج، يا سان أنطونيو.
- حقاً؟

- لقد عملت في صباي في مؤسسة للدهان وتعلّمت هناك كيفية
استخدام القاطعة الماسية.

- عظيم، أيها العجوز الطيّب. إذاً، إلى العمل!

- مهلاً! يصرخ الرجل البدين ثائراً. أكادُ أسجلُ نصراً باهراً على
هذا السيد ولا أريده أن يمسّ الحبالَ قبل تثبيت الكتفين..

- انه نداء الواجب، يا بيمو!

وفي حركة استياء يرمي البدين بأوراق اللعب نائراً إيّاها في
أرجاء الحجرة.

- كلّما تقدّم بي السنّ يزداد شعوري بالضيق من هذه المهنة!

يقول جازماً. فإذا كنّا لا نحظى بعشر دقائق من الراحة، فلا بدّ أنها
نهاية العالم!



بينوش في زيّ زجاج، مشهدٌ لا يفوّت. فعندما يشعر أولادكم
بالضجر أيام الاحاد، ليس عليكم إلّا الاتصال بالرجل المسنّ لكي
يؤدّي نمرته المسليّة.

بينوش يرندي سترة زرقاء ويعتمر كسكيت سائق شاحنة أميركي
مع عقب سيكارتة الاصفر الذي لا يفارق شفتيه، بينوش يحمل
بخفة حمالة خشبيّة رصفت عليها الألواح الزجاجيّة من كافة
الأحجام. ينعطف عند زاوية الشارع ويتجه نحو القنصلية العامّة
لدولة الإبنانيا مُزوّداً بتعليماتي. ذلك اني أعول كثيراً على مظهره
الأبله لتبديد أي شبهة حوله. إذ ينبغي أن يُقابل القنصل زاعماً أنّه
استدعي بواسطة الهاتف. قد يعود خائباً. وقد يحدث أيضاً أن
يستقبله موظف قليل الحيلة والحذر ويقوده الى الحجرة ذات
الألواح الزجاجيّة المحطمة. وفي مثل هذه الحال يكون على المحترم
أن يستبدل اللوح المكسور وأن يتفقد في الاثناء - خلّسة - أرجاء
المكان.

خلف مقود سيّارتنا المركونة على مقربةٍ جلسنا، حضرته وأنا، في
انتظار تنمة الأحداث.

كفّ الرجل البدين عن شكاويه وراح يراقب بعين الحنوّ خيال
رفيقه النحيل.

— بينوش ليس بالرجل الرديء، يُتمتم قائلاً؛ ونقيصته الوحيدة
أنّه لا يمتلك القدر الكافي من الحيوية.

يتوارى الشخص الموصوف بالعبارة السابقة داخل مبنى
القنصلية.

— أوتحسب أن شُجعانك في الداخل سيبتلعون الطعام بسهولة؟
يسأل الرجل البدن.

— لست أدري، أرفرُ قائلاً. ففي هذه القضية أكاد لا اتلمّس
طريقي. مجرّد افتراضات. كلُّ شيء غامض. ثم إنَّ العمل في اوساط
السلك الدبلوماسي أمرٌ بالغ الدقّة.

تمرّ ثوانٍ. فيسحبُ بيرو من جيبه نصف اصبعٍ نقانق ويروح
يلوكها بأناةٍ وتلذذ.

— إنها فضلة طبق «الشوكروت» الذي لم أستطع، لوسامته، أن
أجهز عليه ظهراً. يقولُ شارحاً الموقف.

الكزه بضربةٍ من مرفقي، إذ فتحت مصاريع النافذة في الطبقة
التي تحتلها القنصلية.

— يبدو أنّه استطاع أن ينال منهم! يقول بيرو مغتبطاً.

وبالفعل، بعد توانٍ، يظهر بينو من خلال النافذة. ومن بعيد أراه
يطرق بقايا المعجون بمطربة دقيقة الرأس لكي ينزع الاطار
الخشبي من مكانه. أراه يعمل جاداً وقد اعتلى كرسياً كأنه بضرياته
الخفيفة المتسارعة يقلّدُ نَقَار الخشب. ونقراته تنتهي الى مسامعنا
برغم ضوضاء المازّة والعربات.

عندما اتمّ تجهيز الإطار، ترجّل بينوش من مكانه ريثما يقطع

لوح الزجاج. فيتوارى عن مجال بصرنا. كم يُضني الانتظار! أمل أن يكون عجزنا العزيز قد استغل الفرصة جيداً. قد يكون بليداً بعض الشيء، صاحبنا بينوشيه، لكنّه يمتلك عين صقر عندما يقتضي الأمر. ولا يغفل عن شيء اللهمّ إلّا بعض القرقرة المعوية.

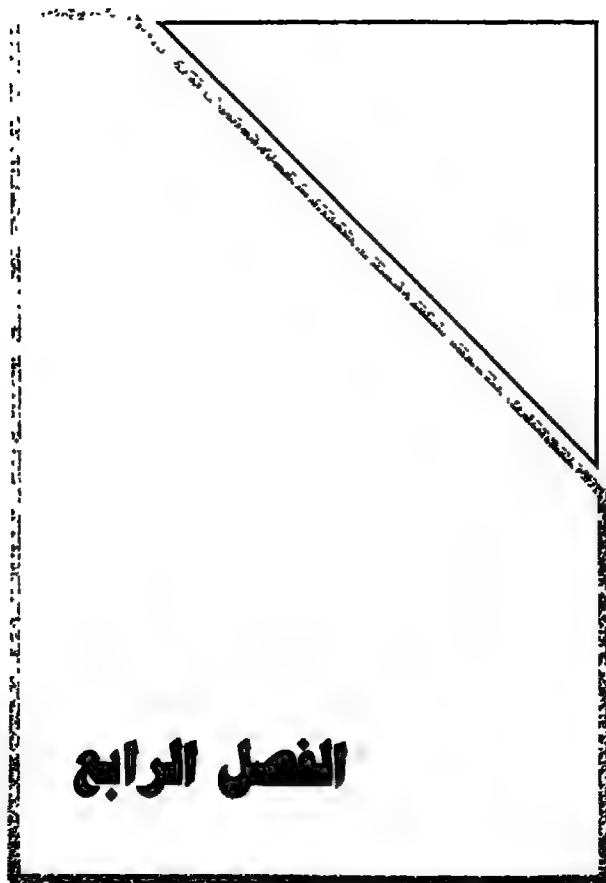
ينقضي وقت ليس بالقصير. وما هو يعتلي كرسيه من جديد حاملاً بين يديه لوح زجاج جديد. يتحني قليلاً لتثبيت اللوح في إطار النافذة، وفي اللحظة عينها يفقد الرجل الوقور توازنه. فيسقط اللوح من يديه ويتحطم؛ أما هو فيخبط ذراعيه في الهواء متمالكاً لكنه سرعان ما يهوي من فوق حاجز النافذة. نطلق، بيرو وأنا، صرخة أسي وعجز ويأس. سقطت حزة من علّ ثلاث طبقات، فلا بدّ أن الأمر يؤدي الى الوفاة.

الوداع يا بينو! يدور عزيزنا المسكين حول نفسه في سقطة مباشرة. وفي الشارع يتعالى صياح المازّة المحتشدين. اغمضُ عينيّ. أرفض أن أرى المنظر. أريد أن أغيب، أن أبتعد عن هذه الواقعة الأليمة، لا أريد أن أرى بينوش يموت، أو أن أسمع صوت تحطم عظامه فوق الرصيف.

وعندما افتح عينيّ، الملح كتلة داكنة مكومة على الأرض، وقد احاطت بها جمهرة نهمة تعشق الانفجالات القوية. ينطلق بيرو كالعتوه. ومصدقوني إن شئتم (ولّا فاذهبوا لاقتعاد واقية الصواعق عند الناصية) وهنت ساقاي وخارتا. يستحيل تحريكهما. لا أحسّ بهما على الإطلاق. فأسند جبيني الى المقود. وكم أودّ أن أبكي. بينوش، بينوش صديقي الطيّب... يا لنهايته الفاجعة، وبسبب أوامري! أمكث على هذه الحال لبعض الوقت. ثمّ يعود بيرو.

— لقد مات، قُتل على الفور...
— عشة برودة، أشبه بدرجة الصفر، تسري في أوصالي.
— مستحيل، أقول مُتلعثاً واهناً.
— للأسف، غمغم الرجل البدين، أما بينوش فاعتقد أنه أصيب
بكسر في الكتف.
— كيف؟
— لقد سقط فوق أحد رجال الشرطة. وهذا ما خَفَّ من وطأة
ارتطام بينوش بالأرض. وبعد الذي جرى لا يمكن القول أن
التنسيقَ مفقود بين أجهزة السلك، اليس كذلك؟
— ونقول إن بينو قد نجا؟
— قلت لك الكتف... حتى أنه لم يفقد وعيه... فماذا نفعل الآن؟
— لا شيء في الوقت الحاضر، أقولُ جازماً. لنُدع الأمور تأخذ
مجرأها الطبيعي.
— يا لبرود أعصابك، يا أخي!
— سيتولى مخفر الشرطة المحلي التحقيقات بهذا الشأن.
وستتصل بهم لاحقاً. يجب أن نعمل في الخفاء، أيها السمين.
— وماذا عن بينو؟
— هاك سيارَة الاسعاف. سيتم نقله الى المستشفى. وسنوافيه
الى هناك.
— كما تشاء، ولكن لن نتمكن من إقناعي أن الحادث مجرد قضاء
وقدر.

- في الظاهر بلى. فقد كان بينو واقفاً على كرسيّ وليس بجواره
أحد لحظة وقوعه من النافذة.
- صحيح أنه أصبح مسنّاً، هذا المسكين، يقول المقدام موافقاً.



— كسر في عظم الكتف اليسرى، كسر في عقب القدم اليمنى، كسر في الإبهام الأيمن، التواء المعصم الأيسر، وتشقق في عظمة الحوض، يقول طبيب الطوارئ.

— يا لهذا البينو المسكين، كأنه قطعة بسكويت جافة، يقول بيرو باشفاق.

— وهل سيستغرق إصلاح هذا السيد مدة طويلة؟ سألت الطبيب المناوب.

— لن يتعالى قبل شهرين كاملين!

— هل بإمكاننا التحدث إليه؟

— أجل، لقد فرغنا للتو من تمليطه.

دخلنا الى غرفة ذات اربعة أسرة. لنجد بينوش معدداً فوق السرير الاخير في مؤخرها. اشبه بلوحة المسافات البيضاء التي لم تدون عليها بعد الاشارات والارقام. يبدو عزيزنا الطيب شاحباً. وما إن يرانا قادمين حتى يرتسم طيف ابتسامة من خلال شاربيه الكثيفين.

- ألم تعثرا على طقم أسناني؟ يصفرُ قائلًا. لقد فقدته أثناء سقطتي ولا بد أنه انزلق على الأرض.

حين يتكلم بغمه الخالي من أسنانه المستعارة يبدو فمه وكأنه بخاخ فارغ.

- لو كان طقم أسناني يلائمك لأقرضتك إياه طوعاً، تؤكد له تلك الروح النبيلة، ولكنَّ خطمك الذي يشبه خطم جُرذ يحتاج الى طقم خاص!

يحتج بينو بلا حماس. ويقول إنه يفضل خطم الجُرذ على وجه الخنزير البري. ويشكر بيرو لعرضه السخي، وينصحه بأن يدس طقم أسنانه في موضع من شخصه الكريم لا يبدو للوهلة الأولى الموضع الملائم له.

ويكفي مثل هذا الجواب للتثبت من صحة العجوز برغم سقطته المريعة.

- ماذا جرى يا بينوش؟ أقول مقاطعاً سجالهما في الوقت المناسب.

- هلاً حككت لي أذني؟ يتوسل المسن الذي ينبغي، على ما أظن، أن أذكركم بأنه عاجز مؤقتاً عن استخدام أطرافه.

فالبني طلبه بسياسة متعاطفة. وعندما استراح صاحبنا من الجحّة تنحنح قائلًا:

- ما جرى لي لا أستطيع أن أصفه لكما ذلك اني لم أظن الى شيء منه.

- وكيف ذلك؟

— كنتُ واقفاً على ذلك الكرسي ثم هويتُ. بدا لي أن الكرسي
تترجّج مع أنني كنتُ وحدي ولا أحد يقربي.

— اكنت بمفردك في الحجرة؟

— لا، كان هناك أحد الموظفين. إلّا أنّه مكثَ على بعد مترين على
الأقلّ.

— كيف استقبلوك في القنصلية؟

— استقبلاً جيّداً. قرعتُ باب الخدمة. ففتح لي خادم. فقلت له
إنني جئتُ لإصلاح لوح الزجاج المكسور...

ثمّ يصمت، وترتسم على وجهه علامة ضيق ويسال راجياً:

— هلأُ نزعّت لي شعرةً من أنفي. أريد أن أعطس.

بادر السمين، وهو الخبير في مثل هذه الأمور، إلى إجراء عمليّة
الاستئصال. فتعمد أصابعه الثخينة الى فتح منخري بينوش. ثمّ
تطبق أظافره المسوّدة حداداً على الشعيرة وتقتلعها. يشهر بيرو
غنيمته عالياً ويعرّضها لضوء المستشفى الشاحب.

— ليست الشعرة المقصودة، يقول بينو معترضاً. ولكن، لا بأس،
لنكمل...

في التعامل معه ينبغي على المرء أن يتزوّد بكل أنواع الصبر
وفنون وأساليب استخدامها. إذ يحتاج دائماً الى فتّاحة قناني
وأنيوب من «الفارلين» لمساعدة بينوش على توليد أفكاره.

— حسناً، أجبتُ منبّهاً، قلت لهم إنك جئتُ لاستبدال الزجاج،

ويعد؟

— ويعد؟ ادخلني الخادمُ الى رواق طويل ودعاني للانتظار هناك.

وذهب لإبلاغ رجل كان يتحدث عبر الهاتف في حجرة مجاورة. اعتقد أنه سكرتير القنصل. كان الرجل يتحدث بصوتٍ مسموع ولا يكفّ عن الثرثرة المتواصلة. وعندما أنهى مخابرته أبلغه الخادم بأمرى. فحضر فوراً. كان رجلاً فتياً أسمر يرتدي ثياباً سوداء تبرز معالم سمته الشاحبة. وسألني عن اسم الشخص الذي استدعاني فأجبت به بما أمرتني أن أقول: «إنني لست سوى مستخدم بسيط وإنّ ربّ العمل هو الذي أوفدني إليهم. ربما أخطأت بالطبقة؟» أردفت قائلاً.

ثم سكّت بينوش مجدداً. فعلى عادته لا يستطيع هذا الرجل أن يدلي بتقرير كامل دون أن تتخلّله اثنتا عشرة استراحة.

— هلاً حككت لي جيبني.

فأحكّ جيبه. فيقول بيرو ساخراً:

— أمل أن لا تكون مصاباً بالحصبة يا صاحبي، وإلاّ استودعك الله!

— وبعد يا بينو؟

— بدأ الرجل ذو الملابس السوداء متردداً بعض الشيء، ثم قادني إلى الحجرة ذات النوافذ المغلقة.

— كيف بدت لك الحجرة؟

— غرفة مكتب فسيحة مزينة بديكور من الجصّ النائي، وقطع أثاث طراز لويس التاسع عشر وكلّ شيء... وقد غطّي إطار لوح الزواج المكسور بقطعةٍ من الكرتون.

— وهل لفت انتباهك أي تفصيل غريب؟

- كان كل شيء مُرتباً في مكانه؛ ولكن ثمة ما لفت انتباهي...

- ماذا؟

- الوشاح الذي يُغطي طاولة المكتب. وشاح كبير مُطوّر وله
شُرابات... بدا لي الأمر غريباً بعض الشيء.

- هذا كل شيء؟

- لا، مهلاً. تحت طاولة المكتب لاحظت أن جزءاً من الموكيت قد
انزع وبتت أرضية الحجرة

- إنه أمر مثير، أقول.

- حقاً؟ يقول بيرو بلهجة تعجب.

- بالطبع! افترض للحظة أن القنّاص قد أفرغ مشط بندقيته
من نافذة المنزل المقابل على شخص ما كان يجلس إلى طاولة
المكتب؟

- وهذا يعني؟

- هناك احتمال أن تكون بعض الرصاصات قد أصابت المكتب،
وأن تكون الضحية قد وقعت أرضاً ونزفت دمها على السجادة،
اليس كذلك؟

- تحليل لا بأس به، يقول البدين. تحليل لا بأس به على
الاطلاق. لا يعوزك الوقت هذا اليوم لاتقاد الزمن. لا أقصد
المحابة ولكن تبدو لي في أحسن حال.

- نستأنّ عزيزنا بينوش بالذهاب في الوقت الذي بدأ يتحسس فيه
جِئته في عجيزته.

*

* *

الكوميسير غائب، إلّا أن معاونه يستقبلنا بكلّ الجفاوة^(٥) التي تليق بنا. إنه شاب قصير القامة ومثقف، ولا يصعب على المرء أن يتبين ذلك على الفور عندما يرى تخطيط ربطة عنقه.

— أه! يقول، قضية الزّجاج؟ حادث عادي أودى، للأسف، بحياة أحد رجالنا!

— هل استجويتم موظفي قنصلية اليابانيا؟

— على الأقلّ استجوبنا الخادم الذي كان حاضراً في الحجرة. ويبدو أن الزّجاج كان رجلاً مُسنّاً ويمكن القول أنه أخرق كحري. فقد اعتلى كرسياً سريع العطب ليثبت لوح الزجاج في مكانه. وفي الأثناء انكسرت إحدى قوائم الكرسيّ تحت وطأة الثقل فهوى هذا الأحمق من النافذة.

— وهل عاينت الكرسيّ؟

— بالطبع. إنها مقعد من طراز نابوليون الثالث من الخشب المخروط الأسود والمطعم بعرق اللؤلؤ. كان محض جنون أن يعتلي بثقله مثل هذا الكرسي الهشّ.

متكلّف العبارة — اليس كذلك؟ — هذا السكرتين ثم يردف قائلاً:

— في العادة، يستخدم الزّجاجون سلماً.

— أمّا هو فقد تزوّج بما يُخفّض رتبته، يمزح البدين الذي أربكته نبرة محدثنا وحركاته.

ويطرق عظمة كتفيه.

(٥) خيط بين الحفاوة والجلأ.

- الخلاصة، انه قضاء وقدر.

- إن خلاصتك متسّعة بعض الشيء يا بيرو.

أرفع سماعة الهاتف وأطلب الاتصال بالمستشفى حيث تمت معالجة بينوش. ممرضة هناك تستعلم عن رغباتي فأرجو منها أن تذهب الى بينوش لتسأله عن الكرسي الذي اعتلاه في القنصلية. فلم تخف استهجانها إلا أن صفتي كشرطي ذي رتبة وصوتي المخملّي اقنعاهما بعدم التردّد وذهبت لتسأل.

- أنت بالفعل كالقديس توما، قال البيغضُ هازئاً.

بعد ذلك بدقيقتين ترقّ إليّ الممرضة جواب بينوش الذي قال انه اعتلى كرسيّ مطبخٍ عاديّةٍ أحضره موظف القنصلية في بادرة لطف منه. وإذ أرضيت فضولي أضع السماعة. أما بيرو الذي سمع لنفسه أن يسترق السمع عبر السماعة الإضافية، فيتخذُ سحنةً أشبه بغسيل الفقراء المنشور ليجف.

- كيف حذرت؟

- إن بينوش المريض ليس من النوع الذي يوكل هيكله المتداعي الى كرسيّ من طراز نابوليون الثالث.

- وهذا يعني؟

- أن جماعة القنصلية هم الذين دفعوه وأنهم تعمّدوا بعد ذلك، في بادرة سخاء، التضحية بقائمة كرسيّ من طراز رفيع لكي يؤكدوا روايتهم للحادث.

يعود معاون الكوميسير الذي ترك لي حرية استخدام تلفونه.

- ثمة ما ليس على ما يرام، يا حضرة الكوميسير؟

— بالعكس، أقول. كلُّ شيء على أفضل ما يرام.

* * *

في السيّارة يطرح عليّ بيرو السؤال الذي يدغدغُ نخاعه الشوكي.

— حسناً، لنسلّم جدلاً أنّ القضية مدبّرة، ولكن كيف استطاعوا أن يرموا بينوش من النافذة ما دام الخادم مكث في مكانه على بعد مترين؟

— كانت الكرسي موضوعة على سجّادة ولم يكن على الخادم إلّا أن يسحب طرفها. أو ربّما اقترب شخص آخر خلّسهُ من الخلف... هناك ألف احتمال.

— وفي رأيك، لماذا أرادوا التخلّص من الأب بينوش؟

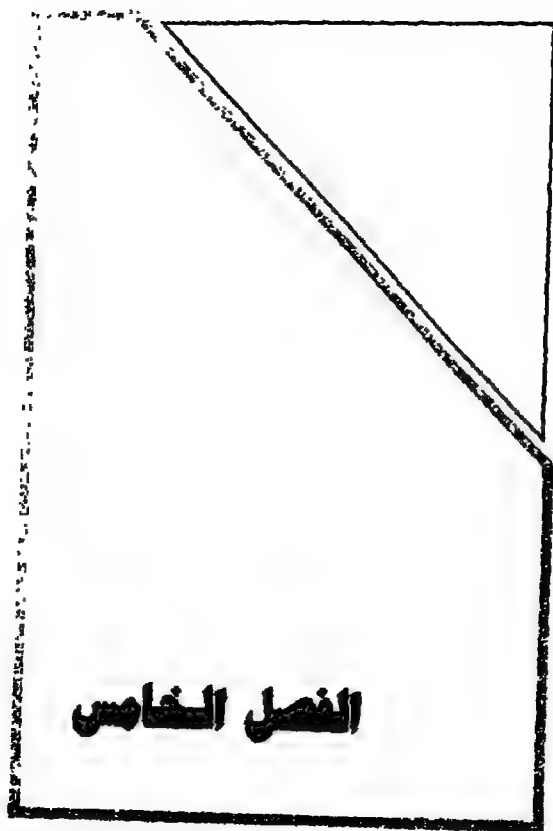
— لأن أحداً في القنصلية لم يستدع زجّاجاً فبدا مجيئه اليهم مثيراً للشبهات.

لم يقتنع السيّد الجليل بتفسيرِي.

— لا اعتقد أنّ ما فعلوه هو الحلّ الأمثل للتخلّص منه. ففي دفعهم إيّاه عبر النافذة تزداد الأمور تعقيداً ومن شأن فعلتهم هذه أن تضاعف الشكوك وتوفّر للمشرطة الذريعة القانونية للتدقيق في المكان.

يصعقني برهانه. ليس هراءً بالتعام ما يقوله هذا الرجل البدين برغم أنه هو الذي يقوله. فبأية حال، ما الضرر في أن يتركوا الرجل يستبدل لوح الزواج المكسور؟ إن المخاطر في ذلك لا تضاهي مخاطر شروعهم في جريمة أخرى.

- هل أنت مسلح، أيها البدين؟
- أحمل ثاقبة الأبدان، أجل. هل تكفي؟
- ستقوم بجولة رسمية في القنصلية.
- حسناً، وماذا سأقول للالابانيين؟
- ستقول إنك شرطي وإنك كلّفت بمتابعة التحقيق حول القضية
لأنّ الزجّاج استعاد وعيه ويدّعي أنّه دُفع عن الكرسي. وستراقب
ردود فعلهم.
يُيدي السمينُ ابتهاجاً.
- حسناً.
- أنتشعر بالخوف.
- لا، قل لي يا سان - أنطونيو هل رأيتني مرتعداً من قبل؟ دعني
أتصرّف وصدّق أنهم سيَعترفون لي بما يملا الصفحة الأولى من
جريدة الباريزيان ليبيريه!
- بنهاية يا بيرو، أسمعني؟
- عندي ما يلحق حاجتي من اللباقة، وقد تحدّثك جمهرة من
النساء بهذا الشأن.
- وخصوصاً لا تلمّح بشيء إلى الرشقات الشبحيّة التي أطلقت
على القنصلية.
- ولكن قل بربّك، اتحسبني صاحب الرأس المجوّف! يجيب
مستاءً. قلت لك إنني أجيد مهنتي جيّداً! لقد عملنا سورياً لسنوات
وينبغي أن نكون واثقاً من ذلك!



الفصل الخامس

- هل أزعجك، يا سيّد موربيون؟

اعتقد انها المرة الأولى التي أناديه فيها بلقبه (ذي المهبان)^(٩)، وكدتُ أعضّ على شفّتيّ إلّا أنّ موربيون بدا غيرَ مبالٍ. لقد اعتاد الأمر. وبأية حال، أليس لقبه هذا هو الذي جعله يتذكرني هذا الصباح؟

- لا، أبدأ، يا صديقي الصغير.

- هل كنت في المنزل عندما هوى الزّجاج...

- أجل ولكن للأسف الشديد لم أكن عند النافذة. لقد سمعت جلبة ارتطام مكتومة وصراخاً وأصوات حشد. وعندما هرعت الى النافذة كان قد قُضي الأمر...

- هلا أعطيتني منظارك مرّةً أخرى. فالعرض متواصل في المبنى المقابل. حفلتان، صباحيّة ومساءنيّة...

يعثر على المنظار المقرب داخل دلوّ أبيض فارغٍ مؤقتاً ويعطيني

(*) Morpion : تعني الاصل: طَبُوع (قمل العانة).

إِيَّاهُ. فأمكن خلف ستارة النافذة المزرقة. وقبلتني أرى مصراعي
النافذة وقد أغلقا من جديد. وأمل أن يتمكّن زميلي البدين من
فتحهما. وعندهما، ستتسلّل نظراتي الرهيفة إلى هذا الحرم
الدبلوماسي! وقد يسأل بعضكم، من بين أكثركم رباطة جأش، لماذا
لا أقوم بنفسي بهذه الزيارة الخاطفة إلى القنصلية ما دام فضولي
متوقداً إلى هذا الحد. وأقرّ استثنائياً أن هذا التساؤل أكثر من
محقّ. ولكن، كما ترون، يا عصابة النباتيين، أنا أحرص على حفظ
قواي للطامة الكبرى، كما كان يقول أحد معارفي، ذلك أن
سان انطونيو يعني مغرّة النخبة، الشجاعة إِيَّاهُ، النجم الذي لا
يُضاهى: ولا يتدخّل إلّا في عزّ المعمة (كما يقول الأرمين).

ومصوباً منظاري المقرب، مكثتُ منتظراً.

- ألا تحتسي معي كوبٌ كاكاو؟ يتمتم موريبيون.

- بكلّ سرور، أجبْتُ ساهماً.

فجأة فتحت المصاريع. لالمح وجه زميلي الاكول البدين. السيّد
بيريبييه مستغرقاً في حديث مطوّل مع رجلٍ يرتدي ملابس سوداء
فأدرك أنّه السكرتير الذي وصفه لي بينوش. فادع هذين السيدين
لشأنهما كي أتفحص مؤخّر الحجرة. فألمح هناك من خلال العتبة،
طاولة مكتب مطعّمة بالبرونز الباهت. وبدل أن تبدو لي كأنها مكتب
سفير أجدها أقرب إلى مكتب كُتيب! إذ أن الوشاح الذي يُغطي
الطاولة يجعلها تبدو أقرب إلى تابوت لميت. خصوصاً أن سجادة
فردت عليها وغطّت كلّ الحيّز الذي تحتله. فاعود لمراقبة بيرو
ومحدّثه. فلاحظت أنّ هذين السيدين يتناقشان بحدة. ولو أنّ
ضوضاء الشارع ليست بمثل هذا الصخب لتمكنت بالتأكيد من

سماع حديثهما. تدوم الحادثة ربع ساعة تقريباً، وبعد ذلك يستأذن السمينُ بالمغادرة.

- هاك كوباً من الكاكاوا ينبئني مورييون اللطيف وقد دس بين يدي كوباً مُترعاً بسائلٍ ساخن.

ويدون حذِرٍ منّي اتذوّق الشراب.

- هل أنت واثق يا أستاذ من أنه شراب الكاكاو؟

وراح مورييون يحتسي جرعةً ويهزّ رأسه برفق.

- لا، لقد أخطأت: إنّه طحين الكتّان، ولكن ما الفرق؟ المهم أن يقتات المرء بشيء، يا صديقي الصغير. فالشرامة شكل من أشكال التبرّج.

- ربّما كنت على حقّ، أوافقه، ولكن الا تراودك فكرة أن تصنع مادة ما من قشّر الموز؟

ثم هرعت لملاقاة زميلي البدين.



كان متهاكاً على مقعد السيارة، صافناً كتمثال بوذا. وأنفه المزدقّ يشبه ثمرة فراولة أهملت في منتدئ الجمعية الزراعية بعد نيلها الجائزة الأولى.

- لا تبدولي على خير ما يرام، يا بيرو؟ أبادره بالقول.

- لأنني لست على ما يرام.

- بسبب ماذا؟

- بسبب الذي سببه!

لن يعدم القارئ ملاحظة الدقة والإيجاز والقوة الياحائية في إجابته. أما أنا فتذهلني.

- إنك في ذروة امتلاكك اللغة، يا بىرو، أقول مُبدئياً إعجابي. إذ لا تغفل عن لطائفها وحذافيرها. وتقلبها كما يقلب الاكتع مضرب التنس. إذ يكتسب الفكر الفرنسي، بفضلك، مساراً لا يُضاهى من حيث المتانة.

«كم أود لو أستطيع أن أحتفي ببراعتك اللفظية بنشيدٍ أنظمه تقريضاً لمجدك. وحبذا لو أملك عشر فصاحتك لأمجد به الأعشار التسعة التي تمتلكها أنت!

أتمله كلامي قليلاً، بىرو المسكين. وبداء جبيته الضيق كمثّل شريط الآلة الكاتبة أضيق أيضاً وإيضاً. أما عينه المائلة دائماً الى الاحمرار فراحته تزداد احمراراً.

- إذا كنت تحسبُ أن ساعة العمل قد حانت، فانا لها، قال السيد المبجل مويخاً. فانا لا أخشى أحداً في لعبة الصبيان هذه.

فأرضخ دون مقاومة.

- إذا؟ ماذا عن زيارتك القنصلية؟

- قنصلي أنت نفسك! لقد خدعوني، يا فتيان. لقد باعني هؤلاء القروء هراء الشيطان نفسه. يا لهم من مكارين! تباً وتباً لهم من مكارين!

- أفصح...

- قبل كل شيء قالوا لي انهم لم يستدعوا زجاجاً على الاطلاق،
اليست بدعة؟

- كل إعجابي.

- بدعة لا بأس بها، بالفعل.

- ثانياً، قالوا لي إن بينوش اعتلى كرسي مطبخ لتجهيز إطار
اللوح، ثم حين ترجل عنها لقطع الزجاج وأراد أن يعتليها مجدداً
فاختلط عليه الامر واعتلى كرسيّاً أخرى كانت على مقربة منها، فمثل
هذا التفسير يجيب على كل تساؤلاتنا. هل تلاحظ مدى دهائهم

- وهل أخبرتهم أن الزجاج يزعم أنه دفع عن الكرسي؟

- طبعاً.

- بماذا أجابوا؟

- ضحكوا. وقال لي النصاب ذو الملابس السوداء والذي حدّثنا
عنه بينوش إن الزجاج كان ثملاً بلا ريب وليس عليه إلا أن يتقدم
بشكوى حسب الاصول النظامية إذا شاء، ويبدو لي واثقاً جداً ممّا
يقول، أوتعلم...

- حدّثني عن المكتب.

- هناك الوشاح الذي يُغطيه إلا أنهم وضعوا سجادة تحته.
أردت أن أرفع الوشاح إلا أن السكرتير راح يزيّد ويرعد متذرعاً
بأنني أقف على أرض الابانية ولا يحق لي أن اتخطى حقوقي. وانت
تعرفني جيّداً؟ أحمّد الله أن تعليمي أكثر من كافٍ، ولكن الحقوق

مسألة أخرى وأعلم جيداً أن لدي ثغرات (إحداها بحجم بحيرة) في هذا المجال. كذلك أثرت السلامة، فضلاً عن التعليمات التي تلقيتها منك بأن...

- حسناً يا بني! لقد أحسنت فعلاً. هناك إجراء شكلي أخير وبعد ذلك الخاتمة فوراً.

- أي إجراء أخير؟

- إنذهب واستجوب حاجبة القنصلية بلطف، لتستعلم إذا كان القنصل يقيم في القنصلية أم انها مجرد مكاتب رسمية.

ويوداعته الماثورة يبتعد نبرو مجدداً . إنه جنو مطيع وباستطاعة أي كان أن يرمي اليه الكرة مراراً، وفي كل مرة يلتقط الكرة ويعيدها الى راميها.



- الخلاصة؟ سال العجوز.

إنها التاسعة مساءً ما يُعادلُ في رطانة توقيت محطات السكة الحديد، الحادية والعشرين تماماً. يبدو القائد متعباً بعض الشيء. ويخطر لي أنه بحاجة لأن يرتاد أمكنة الطبيعة بين الحين والآخر، لكي يُرخي أربطة عصابه. فلفرط ما يمكث قابلاً في مكتبه يكاد يفقد مظهره الادمي. وأراهنكم بكبد عجل مقابل كبد السماء انه لم يَرِ عشبة خضراء واحدة منذ نحو عشرين عاماً. فالكون في عينيه عبارة عن إضبارات وملفات... وينبغي أن تكون للمرء سليقة دانتي نفسه لكي يروي تفاصيل ما يجري في شعاب دماغه.

- الخلاصة؟ يردّد قائلاً بصوته الذي يشبه خرششة عود ثقاب
مبأل فوق محكّه المبتلّ.

- استنتاج غير رسمي، يا سيّدي المدير، قلتُ متابعاً.
- بالطبع.

- أنا أعتقد أنه خلال الأيام الأربعة المنصرمة تعرّض أحد أفراد
القنصلية الى محاولة قتل. فقد كمن قناصة في منزل الاستاذ
موبوي وأطلقوا الرصاص على شخص ما في غرفة المكتب المقابلة
لنزل أستاذي السابق. ولأسباب مجهولة، تكتم موظفو القنصلية
على الأمر. وبالفعل في تكتمهم حتّى أنهم لم يستبدلوا الزجاج الذي
حطمته الرصاصات. من الذي قُتل؟ لغز!

- هل قُتل أحد بالفعل؟

- يبقى أن نعمل على ايضاح هذه المسألة. وبأية حال، لقد نزلت
الضحية، لأنهم سارعوا الى نزع جزء من الموكيت. وعندما حضر
اليهم بينو متكرراً في زي زجاج، لم يتمكن من خداعهم وأرادوا
التخلّص منه نهائياً. أعتقد أنهم لم يرتابوا بكونه شرطياً بل حسبوا
على الأرجح أنّه أحد أفراد جماعةٍ معادية تشن عليهم حرب
عصابات.

- ولكن من المستهجن فعلاً أن يلجأوا الى مثل هذه الحلول
المتطرّفة، فهي لا تخلو من بعض الخطورة.

- الوقائع في متناول يدك.

- بعض الوقائع، اليس كذلك يا فتيان؟ وما إن أنهي هذه

العبارات الجميلة حتى يفرد هاتف العجوز. فيرفعُ حلقى الراس
السماة.

- على السمع!

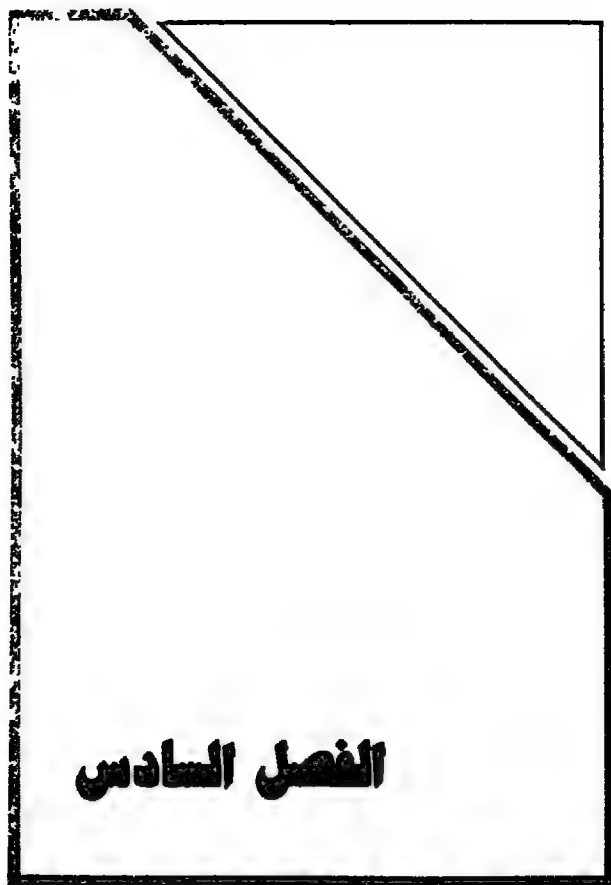
ويُصغي بالفعل. لا يل يصيخ السمع مطوّلاً. ولا بد أن ما
يسمعه مثير جداً، ذلك أن وجهه أصبح أشبه بقناع الموتى. وفي
الختام أعاد السّماة الى محلها.

- إذأ، هاك ما يستحق العناء، يا عزيزي سان أنطونيو، يقول لي
بصوته الذي يليق ببدين عجوز.
انتظرُ التّمة.

- لقد تسلّل شخص ما مُتتكرراً بزي ممرض الى مُستشفى
بوجون وأطلق الرصاص على نزيل السرير المحاذي لسرير بينو. مات
المسكين، لقد قُتل على الفور.

ولم يكد ينهي عبارته حتى شارفتُ عتبة الباب.

- سان أنطونيو! ناداني اليوم، اطلعني على المستجدات.



افضّل أن أقول لكم يا إخوتي أن هناك حركة غير اعتيادية في
المشفى! والجناح الذي وقع فيه الحادث يفصّل بالناس من كل نوع.
الصحافيون يعلنون ابتهاجهم المهني بالتماع فلاشات كاميراتهم
برغم احتجاج موظفي المستشفى. ولحسن الحظ كان هناك بعض
أفراد الشرطة لكي يصدوا الغزاة بقبعاتهم.

- أيزعجك أن تحكّ لي قمّة رأسي؟ يقول بينوشيه متوسّلاً. تخيل
أن كلّ هذا الانفعال قد سبّب لي طفحاً جلدياً!

يحرث بيمو رأس رفيقه بمخالبه القاسية. ويجزيه بينو امتناناً
الرفّة تلو الرفّة من أجفانه.

- ماذا جرى؟ سألت.

يتنحّج المسنّ الرقيق ويدفع بطرف لسانه شعيرات من شاربه
كانت تدغدغ شفّتيه.

- كنتُ نائماً. وسمعتُ طقطقة قشور جوز. ففتحتُ عينيّ ولحت
طيفاً أبيض يلوذ بالفرار. كانت سحابة من البارود تعبقّ في أرجاء
الغرفة. وكنا، هؤلاء السادة (ويُشير الى نزلاء الغرفة المدعورين) وأنا

بمعيتهم، نسعلُ حتى أنفاسنا الأخيرة. لقد استخدم الجاني سلاحاً مزوداً بكاتم للصوت.

قلت لرفيقي بينوش: وهما عجوزان ودودان قيد التصليح.

- هل رأى أحكما الجاني؟

- انا رأيته، يقول الأكبر سنّاً.

- انه رجل بدين، أصفر اللون، وله صلعة ملساء شاحبة.

- لقد حسبته أحد المناوبين الليليين، ولذلك لم أعره انتباهاً، تاتا الرجل الذي يخفي وراءه ثلاثة أرباع القرن وهو يتأملني.

- ويعد؟

- اقترب من كل الأسرة وتمعن في وجوهنا الواحد تلو الآخر.

يتكلم الانفعال غصّة في حلقه.

- ويعد؟ سألت بالحاح.

يُشير المريض الى السرير المنكوب. يتأبط وسادته ويرفع جذعه قليلاً شاخصاً في الفراش المشووم. وإذا يراه شاغراً يرتعد كيانه.

- ما إن وصل الى هناك حتى شهر مسدسه وراح يطلق النار على رفيقنا في الغرفة.

- دون أن يوجّه اليه أي كلمة؟

- دون أي كلمة. وبأية حال فقد كان المسكين نائماً.

بمعنى ما، يلاحظ بيروبييه الحصيف، إنها نهاية جميلة. على الأقل فيما يعني، فلو كان عليّ أن أختار لأخترت طوعاً أن اللفظ الروح أثناء غفوتي.

أرمق البدين في غمرة استرساله في تأملاته الحسيفة. فالسيد
بيرويه من طراز أولئك الملاحين الذين لا يتبعون دائماً خط
غرينويتش.

- أين الجثة؟ سألت ممرضة شابة وجميلة مثل قلب النهار الذي
ذهبت فيه برفقة ابنة عمي إيفيت الى حقل الفراولة.
- نُقلت الى مشرحة المستشفى.

- أود أن أعودها هكذا تقتضي اللياقة!

لم تستبج الطفلة البريئة خفة كلامي. فقادتني بابتسامة
منمنمة في شكل بنفسجة عبر أروقة المشفى لنستقل مصعداً صُمم
خصيصاً لنقل أجساد أفقية فنلفني الى قاعة اجتماع اللحوم
المبردة. وهناك نجد الفقيد ممدداً على نقالة بعجلات وقد غطي
بشرشفٍ تأنف منه الجرذان (كما يقول المغاربة). وإذا به رجل في
الخامسة والخمسين تقريباً عادي الملامح. إنه مثال الفرنسي
المتوسط الحال بكلّ ألّقه؛ ولا شيء في حياته بالتاكيد كان لينبئ
بنهايتة المفجعة صريع رصاصات قاتل ماجور.

- من هو؟ أسأل.

- يدعى لوثان ومهنته خباز. كان يعاني من تقرُّح في المعدة.

- إذأ، يمكن القول انه تماثل للشفاء الآن، تمتعت قاتلاً. وكيف
استطاع القاتل أن يصل الى سريره؟

- كنتُ الممرضة المناوبة، قالت بلطف مقلبة موازين الحرارة وهي
تغطي وجه الخباز مجدداً. ثم جاء ذلك الممرض. وكان يضع برنساً
أبيض فوق كتفه وسألني عن سرير الزجاج الذي نقل الى المستشفى

خلال النهار بعد أن وقع من النافذة.

امسكت بقوة بذراعها حتى لا تبدر منها أي محاولة للإفلات.
وقد بدا لي العكس، أن مبادرتي قد استهوتها.

- ألم يسبق لك أن رأيت هذا الممرض من قبل.
- لا، إبدأ. ولكن عدد العاملين في المستشفى كبير جداً. وظننت
أنه ممرض يُقَلُّ في قسم آخر، أوتدرك قصدي؟
- وبعد ذلك؟

كانت البرودة قارسة في هذه الحجرة وربما لهذا السبب تميّل
الصبيّة للالتصاق بي. ألا تعتقدون أنه السبب؟

- أجبته أنه وضع في الصالة ب وأنه يحتل السرير رقم ٢.

وتتورّد وجنتاهما.

- لقد أخطأت، فالجريح المعنيّ يحتل السرير رقم ٤.

اسمعوا يا فتيان، لا أدري إذا كنتم تشاطرونني الرأي (وإذا
كنتم لا تفعلون فسيان عندي) ولكنني أحسب أن ملائكتنا الحارس
يستحقّ في بعض الأحيان سلام تعظيم على أنغام الأرنغ. والملاك
الحارس الذي يسهر على بينوش يستحقّ اليوم هالة من النيون!
وأشهدكم الحقّ، كما قال أحد القضاة. فما هو الرجل الطيب
(وأقصد هنا بينوش) يسقط من الطبقة الثالثة دون أن يقضي وينجو
من رشقات قاتل محترف لأنّ الممرضة المناوبة لها رأس طائش.
ولذلك ينتابني حنوّ غامر حيال هذه الصهباء المحبّبة التي أنقذت
حياة صديقي بينو.

طوّقت خصرها ومنحتها أفضل ما في جعبة الكوميسير سان
انطونيو من جوائز: القبلية النهمة المبققة الرطبة المرية وقد راق لها
ذلك.

ستحتجون بأنّ المكان ليس ملائماً للشهد من هذا النوع، اليس
كذلك، ايا زمرة من المترمتين؟ ايجب أن أكّرر لكم انني لا ابالي
باحتجاجاتكم وان بامكانكم استخدامهما بمثابة تحاميل؟

اعلم جيّد أنّ من بين شروط التأهيل للعمل في المستشفيات ليس
من الضروري أن تكون الفضيلة ديدناً ودينياً، ومع ذلك فإنّ
صراحتي الماثورة ترغمني على القول إن هذه المرضة طويلة الباع
(بهذا المقدار) في علاج البروستات. ولن تقدّم لي عرضاً شاملاً عن
مهاراتها الفمّية إلّا حين ولجنا المصعد. وتوقفت المقصورة بين
الطبقة الارضية والطبقة التي تحتها ونشرع في لعبة «كيف الحال
ناحيّتك، كيف الحال ناحيّتي، في نظام المشي المرصوص».

اشعر بأنني في حالة جيّدة جدّاً وقد ذهلت الفتاة بالطبع لتفتّح
قدراتها استجابةً لمهاراتي.

الإرتجال علّم ودراية، أيها الفتيان. وأنا أنتمي الى سلالة
السُرّجلين، هيّا، اسألوا هذه الفتاة وسترون بماذا ستجيبكم. لقد
منحتني شهادة بذلك ولكنني نسيتها في دُرج قمصان يوم الاحد.

فوّر عودتي أجّد بيرو مُنهمكاً بالتهام السكاكر. ويخبرني بينو
بشيء من الحدة أن البدين قد نهّب محتويات المفضدة التابعة
للسرير المجاور. وأضاف أنّه أمرٌ غير لائق، وأنّه يتبرّأ رسمياً من
زميله. وبهزة كتفين لا مبالية يشيرُ بيرو الى ضحيته: رجلٌ عجوز

ضئيل الحجم تصل أرنبة أنفه المعقوف الى ذقنه، ينأى محدثاً جلباً
أشبه بضوضاء خلّاط كهربائي.

- أنظر بحق السماء إلى هذا الجدّ البائس، يقول البدن المُتهكّم.
يبدو لي انه مصاب بالخرف ثم كيف له أن يمضغ حبة السكاكر
باللثتين. إن مغارة فمه فارغة تماماً، كأنّه يَسِيرُ على مطّاط العجلة،
تخيّل. فباستثناء هريسة البطاطا واللبن، لا يستطيع أن ياكل شيئاً.
ويبدو زمنٌ عَضُ الرّمّان بملء الاسنان حقبة من تاريخه الغابر. أما
من جديد؟

- لقد ثبت لَدَيَّ أن بينو هو المقصود. ونجا بفضل معلومة خاطئة
وكان لجاره المسكين أن يشرب عنه حساء الرصاص.
فيمتقع المسنُّ المتهاك.

- ماذا تقول، كنتُ أنا المُستهدف؟ يقول مُتلعثماً. ولايَّ ذُنْب؟
- لا بد أن رفاقنا الاعزّاء في القنصلية هم الجناة. اسمع يا
بينوش، ستحاول أن تستجمع كلّما تذكره حول زيارتك للقنصلية.
فلا بد أنهم يحاولون تصفيّتك لأنك شاهدت أو سمعت شيئاً خلال
زيارتك للالابانيين. شيء ما على قدرٍ من الأهمية، ويريدون أن تنساه،
أو أن تدفن معه، مهما كلف الأمر، أسمع ما أقول؟
فيقول بنبرة اليأس.

- لم أزد أكثر مما قلت لك.

- ولكنك سمعت. ألم تقل لي ان السكرتير كان يجري اتصالاً
هاتفياً في الحجرة المجاورة؟
- كان يتحدث بلغة غريبة! يقول بينو معترضاً.

فأصوبُ سبّابتي الحصيفة نحو طاس دماغه.

- حُكّ قليلاً الموضع الذي تشير اليه، يتوسل الهرم الرقيق! كم أحس بالحكة.

فألّبي طلبه. وأقول حاكّاً جلدَ رأسه:

- إذأ، لا بدّ أنه كان يُصرّح بأشياء بالغة الأهمية، يا بينو. ويريدون قتلك تحسباً لاحتمال أن تكون قادراً على فهم الالابانية.

- لكنني لا أفقه شيئاً منها! يصرخ المسرّ هلعاً، يجب أن تقول لهم.

فيقول السمين هازئاً وقد فرغ من التهام حبوب السكاكر المسروقة من خزانة الجار.

- سننشر إعلاناً في الجرائد، يقول الكركدن: يُعلم المفتش الأول السيّد بينو عناصر قنصلية الالبانيا أنّه لا داعي بعد الآن لقتله نظراً لكونه يجهل لغتهم.

- ليس هذا وقت المزاح، يُقاطعه اللطيف، لقد قُتل رجل!

- وبما أن القتل ليس أنت، يُجيّبه العنيد، يُصبحُ الأمرُ سيّان عندي.

ظريف، هذا البيرو نفس طيبة ولكنّه قليل الحساسيّة في الظاهر. ذلك أنّه يحتفظ برأسماله العاطفي للرفاق والأصحاب. أمّا موت رجل فليس في عينيه أكثر من خيرٍ في زاوية الحوادث المتفرقة التي يقرأها حجاب العمارات.

- لا بأس، إنها نجاتك الثانية لهذا اليوم، يقولُ هازئاً. كأنك أتيتا مُجسداً يا بينوش.

وأعطي تعليماتي الواضحة بأن يُنقل المحتدمُ الى غرفة بسرير
واحد وأن يخضع للحراسة المشددة. وبعد ذلك تغادره نهياً للحكة
والصفح الأكال.

الفصل السابع

الامسية مُنعشة مثل كأس الشراب مبرداً بقطع الثلج. يبلغني
ببرو بأنه جائع ويشعر بالنعاس. ويودّ أن يأكل طيق النفاق بالعدس
أو طبقاً من اللحوم المقددة. وبعد ذلك سيذهب ليغفو، على الطريقة
السينمائية، بين ذراعي بَرت، زوجته.

- ماذا بعد؟

- تراودني رغبة مُلحة في أن تقوم بزيارة خاصة الى القنصلية.
- في مثل هذه الساعة! يقول بنبرة استياء. لكنّها مغلقة يا
صاحبني!

- بالضبط، ولذلك سأفتحها.

- لن تجد أحداً هناك!

- لسروري العظيم.

يصعبُ إقناعه ما دامت النفاق تتراءى في علبه نخاعه قبل أن
تستقر مريّة في كيس الهضم.

- وثمة شيء آخر، يا سان أ.

- لا داعي للقول، ولكن بأية حال هاتِ ما عندك.

- باقتحامك لباب القنصلية ترتكب جرم انتهاك الحدود!

- أعلم يا بُنَيَّ!

- والبلية الاعظم أنك ضابط شرطة، مما يُضاعف الأدلة الجرمية، وقد ينشأ عن ذلك إشكال دبلوماسي.

لم يكن مخطئاً في قوله، هكذا كنت أفكر في قرارة نفسي وإن انتبه الى حيرتي، واصل هجومه مُركّزاً:

- ألا ترى أنك قد تسبّب اندلاع حرب بين الابانيا وفرنسا؟ وعندئذ تكون الطامة الكبرى. وخصوصاً في مثل هذه الايام التي اعتدنا فيها ان نخسر كلّ الحروب التي نخوضها! ستقول إن الابانيا بلد صغير لكنني أودّ أن أفنك الى أنه كلما صَغُرَ البلد الذي نحاربه ازدادت حظوظنا في خسارة الحرب. وأكاد أقول إننا لن نصمد لثمانٍ وأربعين ساعة وبعد ذلك سترى القوات الالابانية تجتاح ساحة قوس النصر. أتدرك معنى هذا؟ الاحتلال وخنق الحريات، وما إلى ذلك! لو كنا لا نزال نملك قوتنا الضاربة لما خشيئ شبيئاً. ولكن الحقيقة أن ما لدينا من القوى الضاربة تجده في حي البيغال باحثاً عن الغواني! ومرة أخرى سيأتي الاميركيون الطلييون لنجدتنا. وتذكّر أن لا فاييت كان استثماراً موفقاً!

وينطلق البدين مأخوذاً بحميّاه. الآن وقد اعتلى المنبر، فلا بدّ ان يلعب دور «السيد سميث في مجلس العموم».

ويردّ قائلًا:

- أوتدري لماذا جاء الاميركيون لانتقادنا تُملاً الحيطان بشعارات «ايها الاميركي عد الى بلادك»؟

— لكي يعودوا الى بلادهم، بحق السماء!

— بالطبع، ولكن أتدري لماذا الإصرار على عودتهم الى ديارهم؟

— هلاً أخبرني؟

— لكي يعدّوا العدة للمجيء مرة أخرى لنجدتنا. لا، لا، صدّقني، يجب أن تمنع التفكير في الامر. وافعل ذلك من أجل فرنسا يا سان ا. إذا كنت لا تريد أن تفعله من أجلي. ففرنسا لا تعوزها الازمات في الوقت الحاضر!

ولاذ امكث صامتاً بحسب البدين أن مراقبته قد أقنعتني. فيتمخط محدثاً نخير بوق ويتفحص نتاج فعلته ويلفّ عليه المنديل ويعيده الى جيبه ويقول.

— اعتقد أن طبق شوكروت أفضل بكثير ممّا قد تفعله في لحظة طيش.

أفرمل وأركن مركوبيتي بمحاذاة الرصيف.

— لماذا توقفت؟ يسأل النهم متلفتاً من حوله، لا أرى مطعماً في الجوار!

وعندئذ يلمح سارية قنصلية الالبانيا فيقول ساخطاً.

— لك أن تفعل ما تشاء، أما أنا فلن أقدم على خطوة قد تُفِرّق بلادِي في أهوال الحرب.

— لم اطلب منك أن ترافقني يا إصبع النفاق التالفة، قلت له بحدة، فقط انتظرني هنا.

حملت مصباحي الكهربائي بعد أن اطمأنيت الى وجود مفتاح

«سمسم» سحري في جيبي وغادرت البدين مُستغرقةً في خواطره الأثمة.



اجتزت البوابة بسهولة ولم المس مفتاح الإنارة. وصعدت السلم بسرعة من طبقة إلى أخرى حتى التمتعت لوحة القنصلية النحاسية في عيني. ويطالعني بابٌ ضخم ومتمين ذو مصراعين. وقد جُهِّز بعددٍ من الأقفال يوازي عدد الأزرار في ثوب راهب. فأدركت مشقة المهمة التي تنتظرني. ولكنكم تعلمون بلا ريب أن المهام الصعبة لا تخيفني. فأنا من طينة الرجال الذين يهرعون لترميم سور الصين أو لحفر نفق بواسطة ملقعة شاي لجر مياه المتوسط الى مغاسلهم.

بدأت بمعالجة القفل الأول. ليس من النوع العنيد. ومع ذلك فإنّ الفاصل مصنوع من مادة الايريديوم والمزلاج من مادة مجهولة. وفي آخر المطاف أفلح في تَفْعِ اللَّفْق^(*) (أعذروا أخطاء الطباعة)، أردت أن أكتب: (فتح القفل).

وانتقل الى الثاني، ثم الى الثالث. ولا أواجه صعوبة إلّا في معالجة السادس والثلاثين. وينبغي القول إنه عزيز اللسان لا عزيز المكانة ويستغرقني أربع دقائق وتسعاً وعشرين ثانية، ثم يستسلم لإغوائي وأدلف أخيراً الى المكان. لا بدّ أنكم فطنتم، ان مرّامي واحدٌ وحيد وهو أن أصل مباشرةً الى غرفة المكتب العتيق حيث لوح الزجاج المكسور. ولحسن الحظّ أنتي أتمتع بإحساس صائب

(*) أخطاء الطباعة لدى سان أنطونيولها معنى.

بالاتجاهات. كأنها ملكة من ملكات بركنغز الغامضة. فاجتاز ردة مؤنثة بالمقاعد فأصل الى باب ذي درفتين أجدس أنه باب المكتب المنشود. ادفع الباب فلا يهتز. ولذلك أجدني مرغماً على استخدام الاداة العجائبية التي لا تفارقني في مآثري المسجلة.

وهذه المرة لا تصادف الاداة مشقة بل تُزهِم؛ مجرد إجراء بسيط كما يقول مراقبو محطات السكة الحديد والمحترقون. فادخل الى الحجرة كأيسر ما يكون.

وسرعان ما خلننت أنني خُدت. فطاولة المكتب ليست من الطراز الرئاسي الذي وصفه بينوبل من الطراز الانكليزي. انها قطعة اثاث من الاكاجو، بالغة الاناقة. نظرت الى الاسفل ولاحظت ان المويكيت كاملة. باختصار احسب أنني اخطأت في اختيار الحجرة. فالتقيت نظرة عاجلة على النافذة لتزول عني كل رغبة: لوح الزجاج المكسور. فعدت الى طاولة المكتب وانحنيت قليلاً. لأجد المويكيت في هذا الموضع جديدة ناصعة. لقد لُقِّت بقطعة جديدة فبدت ألوانها زاهية طلية.

احسبُ أنَّ اصحابنا الميامين قد شعروا بخطورة الموقف فسارعوا إلى إصلاح الاضرار. ولا بد أنهم نقلوا المكتب القديم خلال الامسية. فتحت ادراجها فوجدتها فارغة. وهرعت الى خزانة مملقات رُضعت بمحاذاة الحائط حيث يوضع قفل جديد! وسعدت انه توفرت لي فرصة لتحقيق انتصار جديد لفتاحي السحري الذي يُضاهي ادوات لويس السادس عشر. وإذا بملقات مرقمة ومصنفة ومرتبعة متنوعة الالوان.

سحبت أحدها دون تدقيق. فقرأت على صفحته الأولى كتابة واضحة الحروف:

« Hklōvitekaya Sproutnzatza Intzgoz ».

ولا داعي هنا للترجمة لأنني أحسب أنكم لستم على قدرٍ من الغباء الذي يجعلكم غير قادرين على قراءة اللغة الآلابانية الحديثة. وبالفعل فإنَّ الملفات تتضمن طلبات الحصول على تأشيرات دخول. وقد أرفقت كل قسيمة بصورة لصاحبها ولزوجته وأولاده وأهله وأصدقائه وللجابي المكلف بأعمال التحصيل في ناحيته بالإضافة إلى صور جيرانه المقربين. وقد دُوِّنت في القسيمة كافة المعلومات عنه: اسمه وعنوانه وعُكته وتاريخ ولادته ورقم جوازه ورخصة القيادة ورقم رخصة صيد السمك، إلخ. وقد ختمت كل القسائم بختم أحمر ضخم: «Tuladanik-Hu»، مما يعني، لنذكر من جديد إن نفعنا الذكرى (بحق السماء)، «مرفوض». ولذلك أحسبُ أنَّ السياح نادرون في الآبانيا.

أفتح ملفات أخرى فأجد أنها جميعاً متشابهة. وحرُّى بالذين يطلبون تأشيرة دخول أن يطلبوا تأشيرة خروج كسباً للوقت. ومعظمهم من الآلابانيين الذين يعيشون في المنفى وقد ألمَّ بهم حنين العودة إلى موطنهم ليموتوا فيه! إلَّا أن السلطات ترفض تلبية هذه الرغبة الأخيرة، ذلك أنَّ الرصاص عزيزٌ وغالي الثمن في تلك البلاد المذهلة ويحتفظ به بالاولوية للسكان المقيمين. لا بد أن حملتي الاستطلاعية قد أضجرتكم ولكنكم تعلمون جيِّداً مقدار تمقُّن سان أنطونيو وبقته في انجاز مهامه. لذلك أدقق في الملفات، الواحد تلو الآخر متمعناً بكلِّ الصور وقارئاً كلَّ المعلومات الواردة في القسائم.

وكنْتُ منهمكاً في مطالعة الملفِّ الثالث والأربعين حين جحظت عيناى وفُغِرَ فمى واتسعت فُتحة منخري وتصلَّبت عضلات ظهري وتشنَّجت أعصابى وانعقدت شرايينى وجمدت أصابع قدمى، واقشعرَ بدنى ووقف شعراً رأسى واختلجت أذنائى، وتسارعت خفقات قلبى وتلاحقت أنفاسى وجفَّ حلقي واضطربت معدتى وتشوَّش وعيى. وما الذى يُحدث فى هذا المسلسل المتلاحق من الاضطرابات؟ أقول لكم؟ لا لن أفعَل: لن تصدِّقوا كلمة معا سأقول. وستزعمون أننى مفرطٌ في المبالغة، وأن كلامى لا يخلو من شبهة مغرضة وأن حرارتي جاوزت الأربعين. ولذلك أفضل أن اكتم عنكم اكتشائى.

ماذا؟ أتقولون إننى لا أفى بالوعد؟ صوبوا السنتكم على الأقل إذا كنتم عاجزين عن صون نساتكم. فانا الهمامُ طالع الثنايا الذى تعرفونه لا أقولُ أفٌ ومن يطلبننى يجدننى. لا أفى بالوعد، أنا! وبأية حال، ربَّما كنتم على حق.

إذاً، حسناً سأخبركم، ولكن لو تنطَّح منكم من يكذب كلامى فسأجعلُ منه كومةً من معجون أسنان، هل اتفقنا؟ ما رأيته بين الملقَّات، يا ابنائى، هو صورة بينو. اعترفوا أنكم صُعقتم للخبر، اليس كذلك؟ انه خبرٌ غير متوقع! أوتعلمون برفقة من؟ لا يحدثُ لسانكم فقاغةً لا؟ ليس لأنها مثيرة، لاحظوا جيِّداً، ولكنَّها مقبولة. إذاً بينو يظهر فى الصورة برفقة فتاة سمراء فاتنة ترتدى بلوزة بيضاء ولها جديلتان تتدلَّيان حتَّى أسفل ظهرها. وتدعى راعية المفاتن ياباكسا دانلاي. وهى سكرتيرة مُجازة من كلية الآلات الكاتبة في باريس.

اطوي ملفي وأدستَه في جيبِي. وللتوّ أسمعُ صوتاً يهمسُ من
ورائي:

— لو سمحت، ارفع يديك!

يتناهى الصوتُ عذباً وإن شابتَه نبرة أمر، فاستدير نحوه. وإذا
بي قبالة رجلٍ شاحب السحنة قليل الشعر وقد سرحه فوق صلته
اللامعة، ويبيديه مستدسان من العيار الثقيل. وصدّقوني عندما
يحمل الرجلُ مستدساً في كلِّ يد فهذا يعني أن الأمر ليس مجرد
دعابة وأنه لا يفعل ذلك ليُشفني ضحيته من نوبة فواق. يرتدي
الرجلُ ردنين مدعوكين وسروالاً في حالةٍ مماثلة. من المؤكّد أنّ السيد
كان نائماً في حجرةٍ مجاورة برغم أن هذه القنصلية ليست مجهزة
للسكن وتكاد تكون عاريةً من الكسوة (كما كان يقول أحد
أخصائيي الأمراض الجلدية لمريضٍ أصيب بحروق من الدرجة
الثالثة). ولكنّ الرجلَ كان ينامُ يقطاً (يا للمفارقة) ولا يغمضُ سوى
عين واحدة. والآن تراني قبالة هاتين العينين اللتين ترمقانني. وأيَّ
عينين، يا إخوتي! عيار ١١,٣٧! وعندما يلفظُ أعينه الآلية يحيك
إلى ما يُشبهُ قيل نائم! ولو أن محدّثي أصيب بتشنج مفاجيء بسيط
في عضلة سبّابته لجعل المؤرخين ينكبّون على سيرتي وستكونُ سيرة
كاملة حتّى الفصل الأخير.

رفعت يديّ وقلت له:

— أرجو المَعذرة لأنني أبطلتك.

— لا بأس. إن نومي خفيف جدّاً، أجاب الوافدُ ثم نادى:

— كلوتزنا!

مرت ثوان قبل أن يُفتح الباب المغضي الى الردهة. ويدخل منه رجل لا يقل ارتفاعه عن ثلاثين متراً، وأيقنت عندها أن القنصلية مُكتظة بالعاملين.

للواد الجديد شعر طويل يصل الى منتصف ظهره وأنف افطس وحاجبان كَثَّان وشاربان من شأنهما أن يقتلا فرسانجيتوريكس^(*) غيظاً وحسداً.

يصدر الرجل ذو المسدسين أمراً فيدنو العملاق مني ويتراءى لي ظله وهو أضخم وأشدَّ هولاً من جبال الهملايا. لا أستطيع القول إنه لطيف، يا إخوتي. وجهه قناع، يا فتيان! جبينه مَسَاحَة! ولجرد أن يُطبق قبضته على رأسي تطايرت علبة نخاعي شظايا وكسوراً.

إلا أنه لم يستخدم قبضته وإنما عاجلني بضربة ساعد على وجهي. وأسميها ضربة ساعد جوازاً لأنها في الحقيقة ضربة مرفق، فشعرت بزلزلة كأن قاطرة قد قنلت ثغري. وإن تغاضينا عن السهو والخطأ فلا بدَّ أن جئتني قد قذفت الى الحجرة المجاورة.. فوجدت نفسي طريح الأرض. ومع ذلك، وبرغم عنف الصدمة، لم أفقد وعيي. وأحسست أن دماغي صارَ مثل عجلة تدور وتدور داخل جمجمتي ولا سبيل لايقافها أيها الرفاق.

خلال هذه الغشاوة المدوّخة لمحت السيد إفرست^(**) منحنيّاً فوقي. ويلمني كما يلم البشر الأسوياء جورياً قديماً، ويُنبئني فوق

(*) جنرال وزعيم غولي (٧٢ - ٤٦ ق. م) تزعم الغوليين في مواجهة قيصر. اشتهر بشارببيه الكثين.

(**) نسبة الى أعلى قمة في العالم بجبال هملايا، يبلغ ارتفاعها ٨٨٤٨ م.

كنبة ويدس يديه في جيوبه. ويجردني من مفتاحي السحري
ومحفظتي ويهتدي الى مسدسي الاتوماتيكي. تنقشع عندها
الغشاوة الدوّارة عن رأسي قليلاً. وأصبح بإمكانني أن أرى بشيء من
الوضوح. أخذ كينغ كونغ الالاباني يراقبني من وراء أجفانه
الكلفاء. ولن يُقنعني أحد منكم بأن هذا الفتى لم يشبّ على حليب
«المون بلان»! فمن يرغب في احتواء جنته كاملةً، بنظرة، لن ينجو
بالتاكيد من رعشة الباركنسون.

وفي الأثناء يعمد رفيقه الذي حرّر إحدى يديه من ثقل إحدى
غذائتيه الى التدقيق في أوراقه. ليكتشف أنني شرطي، إلا أن
اكتشافه هذا لا يبدّل شيئاً من حياد سحنته. فيدون من المكتب
ويرفع سماعة الهاتف ويدير قرصه بضربات متتالية. يُسمع رنين
الهاتف طويلاً في الطرف الآخر قبل أن ترفع السماعة. وفي آخر
الامر يجيب صوت رجل يُغالبه النعاس:

— هالو! ما يعني بالالابانية: آلو.

وعندئذ يطلق الرجل ذو المسدسين رَشَقاً من العبارات بشأني.
وتعقب ذلك فترة صمت. ثم يُصدر الصوت البعيد أمراً. وتنتهي
المخاطبة. يُعطي رجل المسدسين مُسدّسه للمهملات الذي تجسّد
رجلاً ويفادر. كلُّ هذا يشبه أن يكون كابوساً. فحتى الآن لم
يخاطبني الرجلان بكلمة واحدة. فأقول في سري لا بدّ أن أحاول
شيئاً للتغلّب من هذه الورطة وسرعان ما أقنع نفسي أن وجود
الرجل — الجبل يجعل الامر مستحيلاً. أبسط حركة، لا بل أبسط
رعشة تبدر من شخصي الكريم، ستجعل مصيري الشتات، أعني
بعثرة كياني في الأرجاء.

يعودُ رفيقه ويديه حقنة. آهِ كم أبغض هذا! أبغض الحقن من يد طبيب العائلة فكيف تكون حالي إذا لعب هذا الرجل المقيت دور الطبيب، أحسب أن فرائصي ترتعد.

وأعلم أن السائل الذي تحتويه الحقنة ليس إكسير الفيتامينات أو محلول الكالسيوم. يريدون استعجال نقلي الى الملا الاعلى برفقي، وبدون ضوضاء. وبعد ذلك يتكرّم هذان السيّدان بإيداع لحمي الميت في برميل نفايات لائق. أمّا أنا، لو كان لي أن أختار، فأفضل ألف مرّة طعم الرصاص الذي يليقُ برجولتي. ولكن كينغ كونغ القنصلية يُعاندُ رغبتني الأخيرة ويُطبّق بقائمتة الامامية الهائلة على خناقِي ويثبتني الى مسندِ الكنبّة.

أرى الالاباني الآخر منكباً على حالتي ويديه الحقنة الشمطاء. انه يوم أجلك يا سان ا. وداعاً للفتيات والاحاديث الملفزة بالتلميحات. لقد حان وقت الحساب، يا بني. فأغمض عيني. إني حزين. أن اقضي في زهرة العمر وما زال العالم زاخراً بهذا العدد من القناني والفتيات؛ يا للإحباط!

ولكنّ في آخر المطاف، ينبغي أن نفسح في المجال للأجيال الصاعدة. إذ ينبغي أن يخلي السلفُ الصدارة للخلف. اليس كذلك؟

أشعر بالإبرة تنغرز في لحمي فتنتابني قشعريرة. وفي اللحظة تُفرّقُ رَشَقَةً لطيفة. أربع رصاصات. بان - بان - بان! الحسابُ دقيق، اليس بلي؟ بلي؟ حسناً! يُردى طاعمُ الحقنة ويتهالك على رُكبتِي. ويدعُ الحقنة مغرورة كالوتدٍ في لحم ذراعي. ولحسن

الحظ لا يزال السائل في داخلها. وماذا عن كينغ كونغ، أيها السيدات والسادة؟

أقول للعلم والخبر، إن كينغ كونغ أصبح هو أيضاً خارج اللعبة. لقد مُنِيتْ سحنته الهائلة بتقبين ومَهْمَا كان اعتزازه بغلظة رأسه فقد طحنت رصاصات بيرو تُخَاج مولده. ذلك أنكم علمتم بلا ريب أن البدين هو الذي فتح باب جهنم. كأنه أحد آلهة الأولمب وسيُفُهِ يُطلق لهاً.

- يبدو أنني وصلتُ في اللحظة المناسبة، مرّة أخرى، اليس كذلك؟

نهضت لأعائن الضحيتين. رأس عجلٍ بخلُ العنب، تمثال جان دارك، مومياء رمسيس الثاني، وحتى فقرة من معجم الاكاديمية الفرنسية قد تفوقتهما حياةٌ وحيرة.

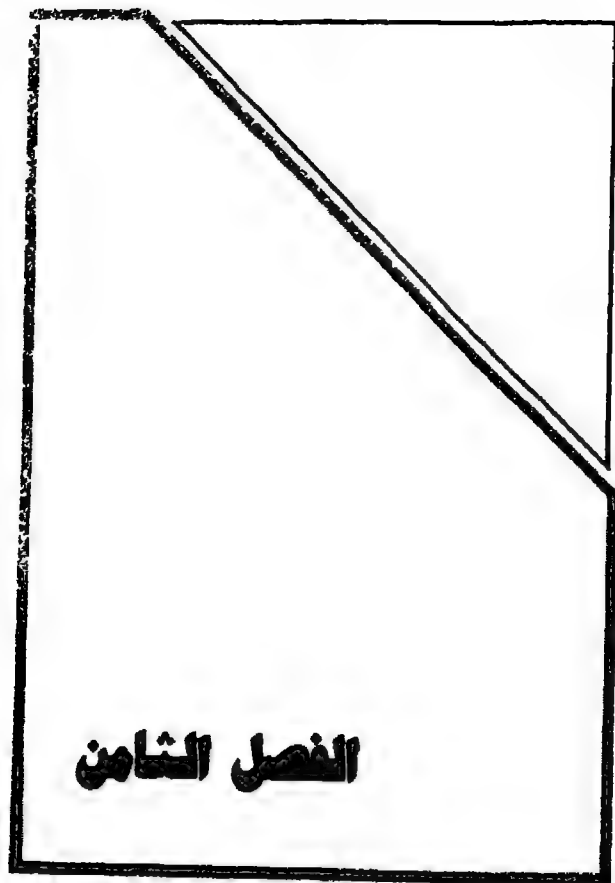
- هيّا بنا! قال بيرو. سيشتدُّ اجيج الأسلحة. كنتُ أحسبُ أنك ستسبّب حريقاً إشكالياً، لقد نجونا، اليس كذلك؟

وتدحرج نحو المدخل الذي أصبح على هذا النحو، مخرجاً.

انتزعُ الحقنة من لحمي وأستردُّ مسدسي ومحفظتي ولحقت به. لقد بدأت الحركة تدبّ في المبنى. وقد لا نتمكن من الفرار قبل أن يهرع السكان من جحورهم.

نهرغُ بلا وعي الى السيّارة. وانطلاقة مكوك فضائي. ثم سباق في شوارع باريس.

- هلاً ذهبنا إلى مطعم «ليب»! يتوسّل البدين. اتحرّق لمذاق الشوكروت!



طبّقان مزدوجان! وتُعِينني الأنوار الساطعة على استعادة قواي.
يكرع البدين كوباً عملاقاً من البيرة ويطلب واحداً آخر.
- إنه مفيدٌ للمثانة، يقول مفسراً. فالمثانة مثل البقية. تحتاج من
حين لآخر لعملية غسل!
كلُّه غبطة، صاحبي الهائل. ولكن فجأةً كم يبدو لي ضامراً إذ
تترأى أمام عيني صورة الغوريلا الألباني.
كأنه البوذا الصغير، بمعنى ما.
- أشكرك مبادرتك الجميلة، قلتُ له وقد غرزت شوكتي في
أصبع نقانق غليظ.
- انتظرتك طويلاً فساورني القلق، قال البدين شارحاً. أعتقد أن
الحرب ستقع بيننا وبين الألبانيا؟
- أمل أن لا تقع.
- إذا حدث أن نشب نزاع دولي بسبب فعلتي هذه فساأشعر
بتبكيك الضمير طيلة عمري، قال صاحبنا متشكياً.
- لا تقلق، سيتكتمون حول الأمر. فمن مصلحة مجانين

القنصلية ان لا تثار الحادثة في العلن. ويبدو واضحاً إلى الآن أنهم يحرصون على تجنب أي دعاية.

ونصرفُ الى التهام أطباق الشوكروت صامتين، فيما تستغرقني دعةٌ ولا أعذب.

إنه لأمرٌ ممتع أن يتلذذ المرء بطبق شوكروت لدى «ليب» بعد نجاته العجائبية من الموت. وبعد العشاء نقلت الرجل البدين في سيارتي الى داره وعدت ادراجي الى المكتب لأطلع العجوز على آخر المستجدات. يبدو لي أنه هو أيضاً يخشى الحريق الاشكالي، كما يقول بيرو.

- كنت تستطيع ان تتلأق الزيارة الى مكاتب القنصلية، قال مُحْتَجاً.

- إلا انها أتاحت لي أن اعثر على هذه الصورة، أيها الرئيس.

ثم أمعن النظر في صورة الفتاة ذات الجديلتين وفوجيء مثلي عندما شاهد بينو برفقتها.

- يجب أن نحصل على بعض المعلومات حول هذه الفتاة، فعليك ببيرو.

- سأفعل. ولكن هلأ أصدرت أوامرك للزملاء الذين سيتولون التحقيق بأن يغمضوا الطرف قليلاً؟

- بالطبع، يغمغم الحيزبون. ولكن تصرفك هذا يضعني في موقف حرج يا سان أنطونيو، إنك فقدت بعضاً من حسن الدراية!
- النتائج وحدها هي التي تحسم الامر! أرد الكيل كيلين.
- بالضبط، ولكنني أخشى أن تكون النتائج غير مقنعة!

- سوف نرى! قلت مواجهاً التحدي
- فليتكلم بسرعة! قال الرئيس حانقاً.
- أتاذن لي بالمغادرة؟
- أرجوك!

ورجت أسرع خطواتي في اتجاه الباب حين دوى صوت
الحيزبون
- سان انطونيو!

*

* *

الشرطي الذي يحرسُ باب بينو يغفو كما يغفو شرطي في نوبة
حراسة.
فأرّبت على كتفه ففتح عيناً يُعكّرها السُّبات
- ممنوع! قال متثائباً.

هاكُم الشرطي الذي يحسب أنه يحرس خندق معركة فردان.
فألصقت بطاقتي بعينه حيث تسارعُ إلى تصويب جلسته مما جعل
كرسيه على وشك السقوط. وأدلف شامخ الرأس الى وكر بينوتس.
أجدُ المسرُّ هاجعاً في قفص الجص الذي يؤويه. طرقت على أحد
جانبه فدعاني الى الدخول.

أجبتة أنني لا أملك المفتاح فأكد لي أنه سينزل بنفسه
لاستقبالي. وفي آخر الأمر زالت غشاوة النوم عن رتيده ورأني.

- أنت مجدداً! قال معاتباً.

- مجدداً أنا.

- في الوقت المناسب، أيزعجك أن تحك لي محيط سُرّتي؟ يكاد
الكلان يقتلني.

- في المرة القادمة سأحضر لك مبرشة أجبان، قلت بنبرة جادة،
أو إن شئت سأحضر لك ملجماً لقد يكون أكثر فعالية.

بعد أن حككتُ الموضع المشار إليه أطلعته على صورة الانسة
ذات الجداول.

- أتعرف هذه الأمازونية؟

- طبعاً، لقد كانت سكرتيرتي في مكتب التحريات الخاصة الذي
كنتُ أديره. تُدعى ياباكسا دانلافي. إنها فتاة فاتنة لا تعوزها
الكفاءة أو الصدق كما ترى جيداً في الصورة انها ذات مظهر
مُلفت.

- أهي الابانية؟

- ليس في حدود علمي، قال بينومند هشاً. فهي تتكلم الفرنسية
بطلاقة الفرنسيين!

- هذا لا يعني شيئاً، فلا بد أن والديها يُجيدان الابانية، أين
تقيم هذه الفتاة الجميلة؟

- في شارع سان مارتان، الرقم ٤٤.

- سأذهب لزيارتها صباح الغد. وأعتقد أنني أدرك الآن السبب
الذي يدفع هؤلاء الابانيين الى محاولة قتلك.

- وما هو؟ يقول بينوش في صيغة سؤال يكاد يشبه فصاحة بيرو.
- عندما ذهبت اليهم في زيجاج، تمكّن السكرتير الذي يمتلك

ذاكرةً بصريةً متمرسّة من التعرّف الى وجهك، وهو، لعمري، وجه
مميّز بالفعل. فسارع الى التدقيق في صورة الملف. وبما أنّه ليس
بالرجل الاحمق فلا بدّ أنّه فكّر على النحو التالي: «إنّ هذا الرجل
الذي يُحاول خداعنا يقف في الصورة الى جانب احدى مواطناتنا.
ويبدو في الصورة أنّهما صديقان، فهل يكونُ الرجلُ الابانياً؟ وإذا
كان الابانياً فلا بدّ انه فهم ما كنت أقوله عبر الهاتف. ولذلك ينبغي
اسكاته مهما كلف الامر».

- وهل كان حديثه على هذا القدر من الأهمية؟

- لا اجدُ تفسيراً عقلانيّاً آخر، يا أبي الطيّب. حسناً، ادعك الآن
تكمل ليلتك الهانئة. وأرجو أن تلتحم عظامك ثانيةً يا بينوش.

- مهلاً، مهلاً، حككت لي باطن قدمي؟

- قليلاً، أقولُ بصراحة، فانا لا أحملُ قفازاً.

وهكذا غادرته وهو عرضة لطفحِ الاكلان.

*

* *

وصلت الى منزلي وتوجهت مباشرةً نحو الثلاجة حيث كرعت كوباً
كبيراً من الحليب المثلّج. فالحليب قبل النوم، ليلاً خير غذاء (كما
كان يقول الرئيس هيريوي). ثمّ أصدع الى غرفتي على رؤوس أصابع
قدمي. الغطاء القطني المطبّع، سرير الخشب المشمع، وقطع الاثاث
القديم الملمّعة بعناية فيليس وهذه هي زمرة الاصدقاء المرخبين
بعودتي فتطمئن نفسي. أندسُ بين شرشفين نظيفين وأدلفُ الى

النخير الودع مصحوباً بأحلام الزرقاة والمنظر الأخاذ المطل على
العدم.



استيقظ في صبيحة اليوم التالي وأجدُ الطقسَ رائعاً. الشمس
متوقدة، وصغار العصافير تواصل تدريبها لامتحانات الدخول الى
سكالا ميلانو، والسماء الزرقاء تشبه بيرق «أبناء مريم». «وهجأةً
أخذ قراراً بطولياً. قراراً لم آخذ مثيلاً له من قبل: وهو أن أمكثُ
في المنزل.

نعم يا إخوتي، واللبيب من الإشارة يفهم، صاحبكم سان
انطونيو، المقدام الذي يُبعثر الأحناك محطمة ويكشف الألغاز
الملقزة، يُبدي فجأةً رغبته في أن يلعب دور الرجل القعدة. ويشعر
بالحاجة الى هدنة الوقت الميت ببعد مُسلسل التورط في أشدّ
القضايا خطورة. وأقول مخاطباً نفسي لا يكفي أن تؤخذ الدنيا
غلاباً. فالحاجة ملحة أحياناً لدعة التبصر كما هي الحاجة أحياناً
أخرى للتصرف بسرعة. فيليس تصنعُ كوباً من الكاكاو المنزلي في
المطبخ. ورائحة الخبز المحمص تعبق في الأرجاء. فأمسكُ بكتفي
والدتي الطيبة وأقبلها قبله الصباح الأولى. فتستدير مُبهجةً وإذا
تجدني في بيجامتي تتمم بصوت لا يجرؤ على التمادي في رجائه:

- لست على عجلةٍ من أمرك هذا الصباح؟

- لا، يا أميتي. اليوم إجازة. أريد أن أعتني بالحديقة.

إنها فرحة فيليس الكبرى. وتمكثُ مشدوهة لفرط تأثرها،

أميمتي المحبوبة، فينتهزُ الكاكاو غفلتها عنه ليدلق فورانه المفاجيء. لكنَّ الوالدة ليست من طراز النساء اللاتي يربكهنَّ تمرُّدُ وعاء الكاكاو. فتصدُّ المحاولة ببرم مفتاح الغاز بحركة مباغتة.

- أحقاً يا بني ستمضي النهار هنا؟

- إنه وعد يا أميمتي.

- إذاً ساحضرك فتائل من سمك السومون بالنبيذ الأبيض المعطر والكي المقلية!

- بعد ذلك سأبدو متتكرراً بمظهر بيروبي، يا أميمتي، بطعامك المتقن الدسم!

وها وجهها ينضج غبطة، أميمتي العزيزة.

انتكسر في زُيِّ بستانني واقصد الحديقة اشذب خضرتها. وهنا بزاقة تشهق قرنيها، وهناك نحلة تلعب لعبة المهتر، إنه صباح جميل. أترون، يا زمرة المحزومين، اننا هجرنا الطبيعة زوراً. نحيا جميعنا فوق صاروخ أطلس ونزيد ونرغي لأنه لا ينطلق بالسرعة الكافية. ينبغي للمرء أن يصرف مزيداً من الوقت للاعتناء بحديقته ولمراقبة شغل النحل. وإلى جهنم قنصلية الابانيا وطغمتها الغربية حية ترنق أوميتة.

أسأل في سري كيف أحوال هؤلاء السادة. ولكنَّ سؤالي ليس ملحاً ولا أبالي بالإجابة الشافية. حتى أني لا أكلف نفسي مشقة الاتصال بالعجوز لسؤاله عن المستجدات بهذا الشأن. أكثر لكم أن يومي هذا مكرس للاسترخاء والراحة.

انتزعُ بعض الاعشاب البرية ريثما أتمرسُ بالعمل اليدوي.

ولكن لا مأخذ لي على أشواك النجيل، يا فتيان. ففي آخر الأمر ليست سوى نبتة تضاهي سواها. إنها مجرد وجهة نظر (وأي نظر أحسرا!) أن تصنف النباتات والحيوانات بين رديء وجيد. فلماذا لا تكون الأفعى بمنزلة الكلب؟ ولماذا لا يكون القُرَّاص بمنزلة الكرنب، أسأل؟

تصلُ السيِّدة سوغرونو مدبِّرة المنزل، بسترتها السوداء وسلَّة مؤنِّها. إنها عجوز صغيرة يُشبه أن يكون رأسها تفاعُة متعفِّنة. وصوتها أشبه بدواسة صدئة. عبر النافذة يتناهى الى سمعي صوت ثرثرتها، أميَّتي والسيِّدة سوغرونو وهذه الأخيرة تجيِّد الحديث من طراز: «لم تمهلني الحياة هدنة». المأسى في كامل حلَّتْها: مؤسسات الرعاية الاجتماعية، الزوج المدمن على الكحول، الابن الذي قُتل في الحرب، والابنة التي هجرت البيت برفقة شقيِّ. فما إن يهتدي الباري الى آجرة جديدة حتى يرمي بها على رأس الام سوغرونو. فواتير الضرائب المستحقَّة، الحجوزات العقارية، قطع التيار الكهربائي، أعطال الفرن، المواعد المنهارة، نصيبها من الدنيا، هذه المرأة المسكينة. ومع ذلك، يجب أن نقرَّ أن المواعد لا تنهار بسهولة. والحالُ أن مدخنة التعسة سوغرونو تنهار كأنها جرف قطبي ولا تخطيُّ حجارتها دراجة الزوج المركونة بدعة عند الرصيف. الطامة الكبرى، فعلاً! والأشدُّ قسوةً، كما تروي الحيزبون، أن تعتاد على الأمر. وبعد ذلك تصبح الأمور مجرد عادة. فما إن تمضي ثمان وأربعون ساعة دون أن تعترضها مصيبة حتى تتوجسَّ شراً وتقيم على انتظار الأسوأ. وعندئذٍ يستجيب القدر لتوجسُّها فيسحقُ هزها أو يعمِّ عليها بورم ليفي من طراز ١٥ الخاص بفرنسا. وتؤكد فيليس أنَّ الباري تعالى سيُجلِّس الام

سوغرونو الى يمينه فور انتقالها لتدير دارة السماء. أمّا أنا فاقولُ
إن قناعة أمي ليست يقيناً. وأراهن مَنْ يشاء أن خطأ ما سيجعل
أحد الملائكة يُرسلها مباشرةً الى حاضرة إبليس.

إنها تروي قصّة الكناري الذي نفق خلال الليل. إلّا أنها لا
تبكي، فقد استنفذ الزمن دموعها فجفت. وبرغم ذلك كان الكناري
رفيق وحدتها، وهو الوحيد في العالم بأسره الذي يُجيدُ عزف
المارسيان^(*) صغيراً. ويبدو أن الحماسة كانت تتملكه فور سماعه
صوت الجنرال^(**) عبر المذياع. وما جرى هو التالي: لقد وجدته في
مؤخر قفصه، جثة هامدة فوق حبوب الذرة البيضاء. قضية محزنة،
اليس كذلك؟ تقطر عينا فيليس دمعاً. فترتسم معالم البهجة على
وجه الأم سوغرونو، فهي تعشق أن يرثي الآخرون لحالها. إذ تجدُ
في تعاطفهم عوضاً ما تعانيه جزاءً.

ورغبةً في مؤاساتها تملي عليها فيليس وصفة فتائل سمك
السومون بالنبيذ الأبيض المعطر. وتبدي الأم سوغرونو اهتماماً
بالغاً فهي لا تعرف من أنواع الأطعمة إلّا البطاطا والمعكرونة.
وتطلب من فيليس أن تدوّن لها التعليمات على قصاصة ورق لأنها
مهتمّة بهذا النوع من الوصفات. ويبدو أنّها جمعت منها الى الآن
ما يملأ دفترًا من الحجم الكبير. بدءاً بقحاطة ذنب الكركند انتهاءً
بفخذ اليجمور المشوي وسلطة هاواي وحساء الهليون. وتؤكد أن
وجود مثل هذا الدفتر ضروري تحسباً لضيف طارئ أو وليمة.

(*) النشيد الوطني الفرنسي

(**) شارل ديغول.

سوى أن الضيوف الذين تستقبلهم هم مأمور الضرائب وجابي
الغاز وجمهرة أخرى من الموظفين الذين تؤدي زيارتهم في الأغلب
إلى صد شهيتك للطعام.

ولكن لا بأس. مع ذلك لا ينال منها القنوط. إنها في سن العناد.
اغض عيني مستسلماً لدعة شمس الربيع. فمن حديقتنا
تتسرع روائح الأرض الرطبة والشجيرات المزهرة. وما جرس
الهاتف يرن. فتوقف الامراتان حديثهما. ويكف الجرس عن الرنين.
ثم أرى أمي واقفة في الباب وقد ارتسمت على وجهها ملامح توجس
غامض.

- المخبرة لك يا أنطوان. إنه السيد بيرويه.

- قولي له أن يدعني وشأني! أجبتُ قائلاً. اختلقي أي
ذريعة: قولي إنني مريض أو إنني منهمك بنقاشٍ حادٍّ مع وزير
الداخلية أو وزير الخارجية إن شئت، لا فرق.

فتبدو منها زفرة ضيق. الكذب ليس أفضل ما تجيده أمي. فهي
تأنف من استخدام هذه الوسائل حتى لو كان الغرض منها
استبقائي في المنزل طيلة يوم كامل. ومع ذلك تتوارى. وتعود
الأشياء إلى مسالك الدعة الصباحية. نحتي غادرت إلى الحديقة
المجاورة. والاحظ للمناسبة أن الجيران قد استبدلوا الخادمة
بأخرى. الأولى التي كانت تعمل في خدمتهم (وخدمتي) كانت فتاة
قصيرة القامة سمراء وسوقية المعشر لا تتوانى عن سرقة ما هو ثمين
وخفيف.

استبدلوا تلك الخادمة القادرة على كل شيء (كل شيء بالمطلق)،

ببقرة بدينة صُنع مقاطعة بروتانية قد يبلغ وزنها طناً وتشبه ب.ب. (اقصد برت ببروريه). وأراها الآن منهمكة بنقض سِجادة فارسية مزينة، نسجت بواسطة آلات حديثة يديرها متقاعدو شركة الغاز. وتحدثُ في غمرة انهماكها قدراً من العصفِ بحيث تثير الرعبَ في روع جاراتها القريبات اللواتي يحسبن أنه أوان العاصفة فيفلقن مصاريعهن على عجل.

تُرى لماذا يتصل بي ذلك الهائل؟ لقد زرع وسواساً خفيفاً في روعي. وتساورني بعض مشاعر الندم. تبدأ هذه المشاعر عادة بانشغال الفكر. في البداية لا تكونُ إلا مجرد وخز خفيف، ثم لا تلبث أن تشتدَّ حتى يضيقَ بها صدرك.

تدفعني قوةٌ قاهرة الى عتبة المنزل، حيث أجد السيِّدة سونغرونو وفيليس منهمكتين بمسح أرضية الردهة. السيِّدة ذات الكناري الميت تغسل البلاط بالفرشاة، فيما تعمد أُمي الى مسح المياه بالمسحة.

وخلال انهماكها بالعمل تحاول السيِّدة التعسة أن تلخص حالة التهاب الدوالي التي أصابت زوجها. يبدو عليها الحصر.

- قولي لي يا أميمة، أقولُ مقاطعاً، ماذا أخبرك الرجل البدين؟ كانت تتوقع سؤالي، فيليس النبيهة التي تعرف جيداً كم أعاني من تآنيب الضمير. فهي تعرف جيداً كلَّ خصال صغیرها سان أنطونيو.

- يبدو أن المدعو...

تبدي بعض التردد فتتورك وجنتاها ثم تتابع:

... ان المدعو مورييون حاول الاتصال بك في المكتب. ويبدو
أن الامر ملّح.

دوى في مؤخر عُلبة ضميري ما يشبه جلبة كيسٍ فزرتة يدُ
غاضبة بعد نفخه. فتوجهت بحركةٍ آلية نحو الدرج.

- ايعني هذا ان لا ضرورة لقتائل السمك؟ تسال امي.

لا اقوى على الردّ فأمرَ براسي بانساً واصعدُ لارتداء ملابسي.



وجدت حاجبة المبنى حيث يُقيم مورييون منهمكة بتلميع
شمعدان نحاسي لحظة انعكاسِ صورتي الشبحية على زجاج
حجرتها.

- السيد موبوي، بادرتها القول...

- الطبقة السادسة لجهة اليسار!

- أعلم، لكنّه غير موجود!

- وما شأنني أنا؟ تسال السيّدة الكريمة.

أدقق في سؤالها وأقلّبه على أكثر من وجه وأخلص الى الإقرار
بأنّه لا يتضمّن أي ردّ إيجابي.

- هل رأيته مغادراً؟

- لا. ولكنني تغيّبت لمدة ساعتين.

- شكراً...

وأهمُّ بالمغادرة حين تقع عيناى بمحض المصادفة على منضدةٍ

خشبيّة صُفّت عليها رسائل المقيمين في المبنى. والملح بطاقة بريدية
وقد دَوّن عليها بأحرف مائّلة وغير منتظمة اسم موربيون وعنوانه.

فأستولي على البطاقة لأتفحصها عن كُتُب.

- إفعل ما يحلّوك! تصرّخُ الحاجة باستياء.

فأقبل نصيحتها وأقرأ.

«حضرة الأستاذ العزيز،

أمل أن تتماثل للشفاء في وقتٍ قريب لتعود إلينا في المدرسة. لقد
عَيّنوا استاذةً لاعطاء الدروس في فترة غيابك. إنها لا تُضاهيك في
شيء. الآخرون يضمّون إلى أمنياتي أمنياتهم الصادقة بالشفاء
العاجل.

من قبل بول ويري والبير ومن قبلي أنا، فيكتور ليكويه».

على البطاقة صورة قطة أنقورية بقرب جهاز مانقي.

- يا لبرود أعصابك! تصرخ الحارسة المهدّارة. وماذا لو

استدعيت شرطياً ليلقنك أصول اللياقة؟

- عندئذٍ تقترفين خطأ لا يُغتفر، يا سيّدتَي العزيزة، قلتُ جازماً.

إذ لا يبدو لي أن شرطياً ما يستطيع أن يُلقن أحداً مثل هذه الدروس

الدقيقة، ثم عاجلتها ببطاقتي فهدأت على الفور.

- حسناً، أما كنت تستطيع أن تخبرني من قبل؟ ما الامر؟

- في أي ساعة يصل البريد؟

- عند الثامنة...

- حتّى لو تغيّبت يستطيع سكان العمارة أن يأخذوا رسائلهم

عبر هذا الشبّاك، اليس كذلك؟

- بلى.

- والسيد مويوي لم يأخذ بريده حين غادر.

- لا.

- أمر غريب، اليس كذلك؟

- بلى.

- هل أنت واثقة من أنّك لم تشاهديه؟

- لا.

- ربّما من المُستحسن أن اصعد ثانية؟

- أجل.

- إن سمعه ثقيل بعض الشيء؟

- أجل.

ولإذ أشعر بأنني لستُ بارعاً في لعبة كرة الطاولة هذه تركت السيدة لأصعد الطليقات السّت مرّة ثانية. وأقرع الجرس مجدداً حيث لاحظت أن رنينه المسموع في هذا المبنى البورجوازي يُشبه قهقهة مفاجئة أثناء القدّاس في كنيسة.

ولم أسمع جواباً سوى مواء القطط. وفي مثل هذه الحال، ليس لي إلّا أن الجأ لعجائب مفتاحي السحري «سمسم!»، المقدام، اليس كذلك يا جبراني؟ وسرعان ما يتضح أن قفل باب مورييون متهاكّ مثله. ولا يحتاج لأكثر من شوكة طعام كي يبتلع لسانه... ولم يستغرقني أطول ممّا يستغرق الدبّاغ في تحويل أرنب إلى فروة فيزون. فيُفتح الباب وتهرع القطط مواءة لتندس بين ساقي. اتفقد

انحناء الشقة مدفوعاً بتوجّس غريب. رائحة العفن تزكم الأنوف في شقة موزيبيون. ومن شأن قططه أن تكون استثماراً جيّداً لشركة إيريوك للسجاد. ولكنّ الغريب أنني لم أعثر في الشقة على ما يبرّر مخاوتي. الشقة خالية. ولا أثر لموزيبيون فيها كما قد لا تجد أثراً لما رقي في جامع. تفحصت كلّ زاوية وركن، تحت السرير، داخل الخزائن وفي أدراج الكومودينة، لكن عبثاً.

ولّد عاودني الارتياح قصدت النافذة المواجهة للقنصلية فتبدو واجهاتها محايدة كأنها قنصلية سويسرا. إلّا أنّ شيئاً ما، لا أعرف ما هو بالضبط، يُقلّقني ويضاعف حيرتي. فأقول مخاطباً نفسي دون مُراعاة أصول اللياقة: «ما الأمر يا سان أنطونيو؟ ما سبب هذا الضيق الغامض الذي ينتابك؟».

لم أجب عن سؤال. تبدو الشقة غير مرتبة وفي حالة فوضى، إلّا أنها فوضى موزيبيون المعتادة. ويرغم أنّ القطط ينبغي أن تضفي مناخاً من الطمأنينة إلّا أنها تُشيع في الأرجاء مسحة من الكآبة. لنزّ قليلاً: هذا الصباح اتصل موبوي بالمكتب وأراد أن يحدثني بأمور ملحة وعاجلة. فما هي هذه الأمور؟

ثم غادر المبنى وقد نسي تماماً وهو الرجل المنظّم والدقيق، أن يأخذ رسائله من حجرة الحاجبة.

إنه أمر يُثير الريبة.

أوه، بالطبع، إن الحمقى من أمثالكم لا تستوقفهم مثل هذه التفاصيل الدقيقة، فبإمكان أحدكم أن يقتعد فرناً متوقّداً دون أن يشعر بلسع ناره. إلّا أن الكوميسير المحبوب يعمل تحت شعار الثاني والدقة، فهو يمتلك حساسية مُقتحم الخزائن الفولاذية.

فدقائق الأمور هي صُنعتة ومراده. وبما أنه بمثل حساسية الفيلم الفوتوغرافي، يقف هنا حائراً، يسأل نفسه عما يجري وراء المظاهر ويبحث عن السبب.

أخذ قراراً بالعودة الى المكتب لمقابلة بيرو. فماذا لو أن موربيون العجوز قد زوّده ببعض التفسيرات؟

وفي طريقي الى الباب بلغت فطنتي التي يُضرب بها المثل^(*) ذروتها. إذ اكتشف فجأة مصدر الاضطراب في أجواء الشقة. أوه، إنه تفصيل دقيق يا ابنائي: لقد انتزع رِقااص الساعة ووضع، بغياء ظاهراً، بقربها. وبدت العقاربُ المتوقفة تشيرُ الى العاشرة إلا ثلثاً. فألقي نظرة عاجلة الى ساعتني وأجد أنها قاربت الظهر.

لا ابالي كثيراً بتفسيركم لمثل هذا الأمر، ولكني أعلم، حُبرةً ودرايةً، أنه العجب العجائب، ليس كذلك؟

(*) قل إنها عدل ستة براميل وصنوبر. (س. ا).

الفصل التاسع

— لقد عاد بيرو الى منزله، ولديه ضيوف على الغداء. هكذا قال لي المناوب.

وبزفرة عميقة مثل ريح المسترال العاصفة، قررت الذهاب لزيارة آل بيروبييه. فوصلت الى عمارتهم في الوقت الذي يهرع فيه عجوز هابطاً السلم وقد غطت الدماء وجهه، وتتبعه امرأة عجوز مولولة، ثم امرأة أريغينية منتحبة يتبعها صبيّ مقهقه. فاعترضت طريق ذلك المسنخ الصغير.

— ماذا يجري، أيها الوجه المغتبط المقهقه؟ سألت قلقاً.

— إنه نمر السيّد بيروبييه لقد عضّ جُدي، أجباب وهو يحاول الافلات من قبضتي.

حالة من الذعر تسودُ شقّة آل بيرو. وأجد اليدين منهمكاً بعراكه المستमित مع القطّ البنغالي الذي أحضره من تورينو.

— كليعنصوا! عُد الى حجرتك بسرعة! يُبرطّم المروض.

يقفز النمرُ الى صدري ويفرقني بدموعه وهو يلعنُ صاحبه الرهيب الذي يُفسدُ بؤسائوس جنونه دعة الحياة الزوجية والاسرية.

وتفسير ذلك: أنهم كانوا على ويتك شراء منزل ريفي صغير على أن تُسَدَّد أقساطه على المدى البعيد. وجاء «أصحاب الشأن» لتوقيع عقد البيع، إلا أن المالك العجوز أصيب بنوبة سُعال. والحال أن كليمنصو، نمر آل بيرويه، يستقيح السعال. فوثب على البائع وجعله فأن غوغ الثاني بعد أن التهم أذنه اليمنى. فلم تتم الصفقة.

انفلج بيرو أخيراً في ادخال حيوانه المفترس ذي الخطوط الى حجرته. ولكن صنيعة هذا لا يُنهي الأزمة، ذلك أن كلبه السان برنار كان هناك وكذلك الخادمة. ولم يلبث أن علت أصداء عراك صاحب. فهرعت الخادمة، وهي شقراء شاحبة مُشعرة، وقد تدلّت من عنقها نظارة ندّافي القطن وتشبّثت برسّ السان البرنار الذي ارتجلته من سلسلة لسيفون المرحاض ومع ذلك لا تُفلح (ولن تفلح) في لجم الكلب.

يتبادل النمر والكلب نهش الانياب في كلّ المواضع. وتُضطر برت، سعياً وراء النجاة، الى الوقوف فوق طاولة. إلا أن قطعة الاثاث التاعسة الحظ قد صمّمت لحمل إناء من الأوبالين ليس أكثر فتنهار تحت الثقل. تتشبّث برت بالثريا، ولم تصعد الثريا اليانسة تحت الثقل هي ايضاً. فتستسلم لبرت حاذيةً بذلك حذو كلّ صبيان الحوانيت في الجوار. ويحدث ارتطامها بالارض انفجاراً من قطع الزجاج المحطم. ولا تلبث أن تكسو الارضية ببخيرة من البريق. وحين انتزع ساق الثريا من السقف انتزع معه مترين مرتعين من مساحة السقف. ولسوء الحظ كان السقف يُستخدم على وجهين، فهو في الوقت نفسه يُشكّل ارضية الجار الذي يقطن الطبقة العليا.

وعبر الفتحة المستحدثة في السقف شوهد رجلٌ عجوز يضبط
سماعة أذنه الكهربائية على موجة حلبة الثيران الهائجة في الأسفل.
- مساء الخير، يا سيد لوساج! يصرخ بيروقائلاً محاولاً قَضَ
اشتباك المتعاركين. أعذر لنا فوضائنا، ذلك أن هاتين الدابتين
اللعينتين تسببان لنا الويلات.
- لا، شكراً، لقد تناولت طعام الغداء للتو! يُجيبُ الاصم، الذي
لم يسمع كلمةً واحدة.

وفي آخر الامر تفلت الخادمة السلسلة وتهرع لنجدة برت،
وتنهمك بانتزاع قطع الزجاج التي انغرزت في لحمها بواسطة ملقحٍ
يُستخدم لقطع السكر. إنها تبكي، الخادمة المغناج. ولا تفهم كيف
يمكن أن تحل بهم مثل هذه الويلات وهي تحمل في رقبته ميدالية
سيّدة لورد التي باركها المونسنيور بيتاوتشونيك بالذات. إن الدنيا
لتزخر حقاً بالنكبات التي تعصى على الفهم! بيرو، في حد ذاته،
إعصار. ويؤكد أنه ربّ المنزل وأنه سيفضب. ورداً على تشوّقه هذا
يثب كلب السان برنار وينتزُع قطعاً من رجل بنطاله، فيما ينتزُع
النمر كمّ سترته. إلّا أن بيرويينه يعرف كيف يجتاز المحن مرفوع
الراس. فيتابع مقاومته العنيدة. ويهرع الى المطبخ ويستولي على قِدرٍ
وضع على النار دون أن يبالي حتى يرفع غطائه.

- آه! الويل لكما آتيا القردان اللعينان، يشتم البدّين باللغة
الأتروية^(*)، قِدر من الماء الغالي قد يهدىء من روعكما.

وها أنّه يبلق محتوى الوعاء في اتجاه المقتاتشين. ويا لهول ما

(*) منطقة كانت تقع قديماً في غربي إيطاليا. (م. ح).

فعل، فالقدر لا يحتوي ماء بل حساء لحم العجل الدهني. والأشدّ هولاً أن الرمية تخطيء المتعاركين وتُصيب برت مباشرةً في مقورها الحاسر عن الكتفين والصدر. آه! بحق الأسلاف، حساء لحم العجل الدهني الكثيف، إنّه اكتشاف العصر. وتبدأ ب. ب. بويلاه تشبه صفيّر المصانع عند ظهر أول خميس في الشهر. وتصرخ بأنها تموت. ولكنّ قوة صراخها تُطمئن. فتنزع بلورتها الحرير المزركشة برسوم القرنبيط المزيّن بأوراق الوردة. ثم تنزع صدريتها ذات الحواف المصفّحة وتلك أزارار المشدّ وأقسم لكم أن استعراضاً من هذا النوع كان ليثير عاصفة تصعق في كباريه «الكرايزي هورس هالون».

ولإدّيسينه اخفاق رميته الأولى المُخجل، يستخدم البدين وسائل أخرى أكثر فعالية. فيسارع إلى اللُمبادير ذي القاعدة الخشبية فيلوح به في كل اتجاه. فتكون حصيلة الأضرار على النحو التالي: إناءان خزفيّان، إطار صورة والديه، مجسمٌ أيلٍ من الجصّ المزركش، اكليل من زهر الليمون (تحت قبة زجاجية)، تمثال نصفي للجنرال ويغان، جهاز ترنزستور، شاشة التلفزيون، ومراة خزانة الأطباق، رخام الموقد، شمعدان من الخشب الأصلي المزّيف، كركند مصبّر، ميزان حرارة معطل، إبريق حَقَن، زوجان من المصابيح الجدارية من الطراز الامبراطوري، وصينية الفاكهة. كلّها أصبحت حطاماً في مهلة قياسية. وفي آخر المطاف تُذف اللُمبادير باتجاه المتعاركين من نوات الفراء. وينطلق نخير النمر فيكشف عن صفّ من الاسنان السليمة ويسقط أرضاً. ويروح كلب السان برنار الذي ساءه أن يُصاب رفيقه، يتشَمّم فروقه الرطبة. ثم ضربة لمبادير ثانية ترمي به كلباً أفقيّاً سويّة الأرض. وعندئذ يرمي ببرو بسلاحه من

فوق كتفه الى الوراء، فيستقر غطاء اللبادير فوق رأس برت التي ارتدت زني حواء. ولا يستطيع أحد منكم أن يتخيل مظهر المرأة الحوت التي لا يكسو جسدها من الملابس سوى: جوربين وغطاء لمبادير من الورق المقوى وبقعة حمراء هي أثر حرق. وها هي متهاكئة لا تقوى على الصراخ. خائفة، مغلوبة، راضخة! لقد كان بيرو على حق، فهو السيد الاوحد على المتن بعد الله سبحانه. فيُحصي الاضرار: نمر ميت، وكلب سان برنار مصاب بكسر في مؤخر ظهره، وينبغي الاسراع الى مخازن ليفيتان لإصلاح الاضرار التي أصابت المنزل.

- هذا يحدث حين أخرج عن طوري! يقول كمن يطلق الانذار الأخير.

ولكن كلامه الحازم هذا لا يحول دون ارتباك مفاجيء ينتاب نبرة صوته. فالبدين يعلم حق العلم أن الرد الانتقامي وشيك جداً. ذلك أن برت ليست من طراز فتيات الرعية التي تكابد الإهانة طويلاً دون رد الكيل كيلين. وسيكون ردها الانتقامي مرئلاً أيها الفتيان!

في الأعلى، كان العجوز الأصم قد جلس على كرسي عند حافة الفجوة ومكث يُراقب بشغفٍ كما يُراقب البطريق مضيق بيرينغ من خلال فجوة أحدثها في طبقة الجليد.

فهو يعرف جيرانه جيداً. ويعلم أن الجولة الثانية ستبدأ وقد تستغرق في هذه الحالة وقتاً إضافياً. فحتى اللحظة يُحافظ بيرو على تفوقه في أرض الملعب، ولكن زوجته الحوت تستجمع قواها. وها هي تنهض مستعينة بالخادمة. فترتدي تنورتها وبلورتها. وبعد أن

سترت أضخم ما فيها بدت جاهزةً لمناورات الربيع. والهدوء الذي
تبديه ينذر بأوخم العواقب.

ويقع المحذور.

تتلقت من حولها فلا تجد في متناولها ما يُشفي غليلها، فتدخل
الى غرفة النوم بحثاً عن الأداة الملائمة. وتعود مسلحة بعدة صيد
الأسماك التي يستخدمها حضرته. وبدراية مدهشة تستحيل
القصبة، بين يدي السيِّدة، الى عصا كمبودية غليظة معدلة بما
يناسب استخدامها كهرآوة.

• - برتي! يلفظ المتوسِّل شكواه.

أُذنّها مثل حجر الصوّان. وها هي تقذف بكرة القصبة فتصيبُ
زجاج النافذة. تبكي الخادمة وتشهق. إنها طيبة هذه الخادمة،
مهنتها تقتضي منها الطيبة. وتسترسل في صلواتها، «أبانا واحدة
باللاتينية وثانية بلهجة البروتانية، وثالثة مصحوبة بالإشارات،
ولكن يبدو أن السماء لا تفهم هذه اللغات الثلاث هذا الصباح.
تقلب السيِّدة بيرو طاوله صالة الطعام لكي يُتاح لها أن تتصرَّف
بحرية. وعندئذ يُدرك بيرو أنني الأمل الوحيد الذي تبقى له.

- سان! يقول متوسِّلاً، افعل شيئاً! أنت ترى جيداً أنني لست
المخطيء الوحيد.

وترفع برت عينيهما الحمراءين كعيني مصارع ثيران نحو الجار
الأصم.

- أنت شاهدٌ على ما جرى! تصرخ مثل البقرة.

- إنها الثانية عشرة والدقيقة العشرون! يُعلن الرجل الوقور.

– يا عزيزتي برت، قلت متوسطاً بينهما عليك بالهدوء. إن امرأة جميلة مثلك ينبغي أن تكون قادرة على تمالك أعصابها.

فأجابتنني بالسؤال عما يجعلني أحشر أنفي في ما لا يعنيني. وإن أحرار جواباً مكثت صامتاً في دور المتفرج. أوه! أيها الفتيان، يا لها من معركة أطباق! كل أوعية الليمون الفاخرة تستحيل حطاماً. ويهرع سكان العمارة إلى أبوابهم يدفعهم الفضول. وتأتي سيدات بأشغال الصوف يتابعنها في الأثناء وينسى السادة أن يحضروا مجلاتهم المفضلة. وتتصل الحاجة بمصلحة جمع النفايات عليها ترسل شاحنة لرفع الانقاض ونقلها. وربما الأجدر أن تتصل برجال الأطفال؟

أقفُ حائلاً بين الزوجين.

– ابتعد، أيها الوجد، وإلا طرحتك أرضاً أنت أيضاً! صرخت البديعة الشمطاء.

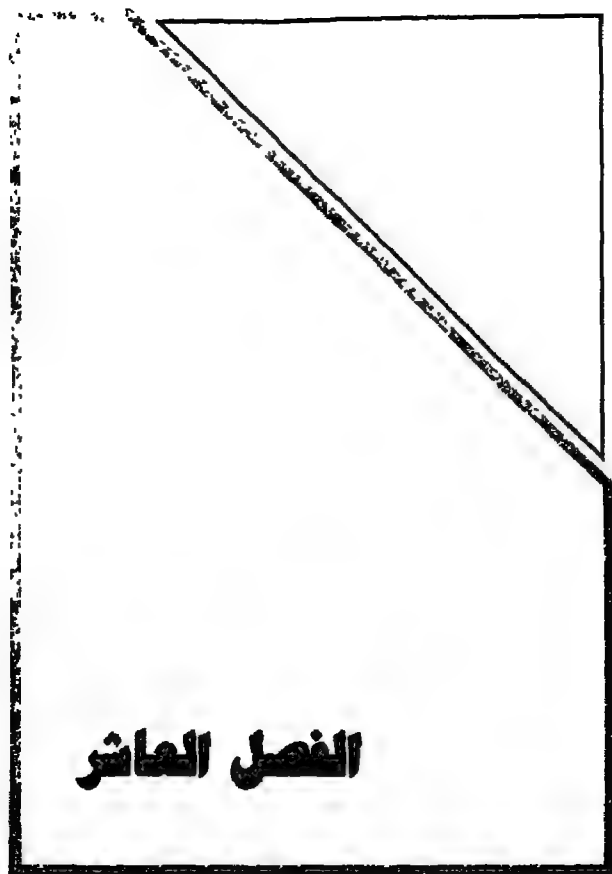
– مهلاً، يا سيدتي العزيزة، لدي سؤال وحيد أريد أن أطرحه على زوجك. قل لي، أيها البدين، ماذا أخبرك مورييون حين اتصل صباح اليوم؟

– أراد أن يتحدث إليك، يُبرطم المنتفخ. وقال إن الأمر ملح جداً. مسألة حياة أو موت. وأنه ينبغي إبلاغك مهما كلف الأمر...

لم يتمكن من اتمام عبارته. فقد التفت برت من ورائي حاملاً إحدى الكنبات وقذفت بها مُطِيحَةً بوجه بدينها.

أعبر على جثة البدين لأصل إلى باب النجاة.

— اتفادر الآن! تقول امرأة عجوز.
— أجل، قلت معتذراً، لدي موعد مهم. ولكنني سأحاول أن أعود
في نهاية عرض الساعة الثالثة لأشاهد الخاتمة.



الفصل العاشر

الرقم ٤٤ من شارع سان مارتان يشبه الرقم ٤٥، سوى أنه يقع في الجهة المقابلة من الشارع. إنه منزل بجدران وسطح ونوافذ. وله بابٌ ندخل منه، وسالماً للصعود الى الطبقات العليا وحاجبة تنصع الزائرين بمسح أحذيتهم جيداً قبل أن يصعدوا. سألت السيدة المذكورة عن شقة الأنسة ياباكسا دانلافي. فقالت أنها تسكن الطبقة الأرضية، الأمر الذي يُضاعف من غبطتي وسروري لأنّ المبنى غير مجهّز بمصعد برغم عدد طبقاته.

يُطالعني باب ضيقٍ أجرد الصقت عليه بطاقة زيارة: إنه الباب المقصود! لا وجود لجرس، فأثني سبابتي وأستخدم إصبعي الثانية، بمشاية مطرقة. إنها معجزة التقدّم: يُفتح الباب. تقف الأنسة ذات الجديلتين أمامي بجديلتها بالطبع. وأرجو أن تدرّكوا جيداً أنني لا أكون سوى ناطق باسم الحقيقة الصادقة حين أؤكد لكم أن هذه الصبيّة هي الجمال عينه في أجمل صورة!

شعرها الاسود الفاحم يُبرز جمال بشرتها الشاحب، والعكس بالعكس، يُبرز جمال بشرتها الشاحب ألّق شعرها الفاحم. لها عيناّن مذهلتان: بلون الخبّازي تشعانّ القأ مذقياً. وجنتاها بارزتان

قليلاً، شفتاهما مكتنرتان، أنفها دقيق وقدّما الأرهف (أقصد: الأهيف)، وساقاهما وقدماهما وكلّ ما فيها يجعلها أشبه بتحفة فنيّة أين منها فينوس رفيقي ميلو. إلّا أن أجمل ما في هذا المخلوق الفاتن، بالإضافة الى روزنامة مصلحة النقل المشترك التي تمثّل مغيباً خلال خسوف القمر، فهو صدرها. ما أن تتعرّف على النهدين حتى تعشقهما كما يزعمُ أحد الأمثال. ونهدا ياباكسا يتمتعان بما قد يستثير حماسة عمومية. أولاً بسبب حجمهما الرائع. وليس ذلك لانتني أعير انتباهاً خاصاً الى الكَمّ؛ ولكن حين يكون الكم جزءاً متمماً للمتعة، فلم لا؟ وأحسب أن نهدي الأنسة من العيار الثقيل، يا فتيتان! والمقارنة فقط أحسبُ أن الرخام الاصلب يبدو حيالهما مجرد مطاط رخو. ولا بدّ أن مداعبتهما من بين أكثر الخبرات عنفاً. أنهما يصيبانني بالخدن.

– الأنسة دانلافي؟ أنعقُ شاخصاً في زرقة نهديها.

فتردّ علي بابتسامة كم أوّد أن أجعلها هديّة لكلّ منكم في يوم سنّعه.

– أوه! أوه! الكوميسير سان أنطونيو، تغرّد وردة الألبانيا النادرة.

أي شرف عظيم يجعلني أستحق زيارتك؟

فامكثت مذهولاً كطيف الميدوزا، يا فتيتان.

– أتعرفيني؟ سألتُ مستجوباً.

– ومن لا يعرفك! وكيف لي أن لا أعرفك بعد أن عملتُ طويلاً في

مكتب السيّد بينو! لقد كانت صورك تملأ حيطان المكتب يا حضرة الكوميسير.

لا داعي لأن تتحدّث في برنامج إذاعي لكي يتضح على الفور أنّها على قدر من الذكاء والنهاية. ولا يظنُّ أحدكم أنني لا أباي بالمديح. فما قالته الأنسة من العيار الذي يُصيبني تَوّاً في الصميم. وأقبله دون تمحيص.

وهذا ما أفسح لي المجال لكي أدخل الى مسكنٍ في حجرة واحدة متواضعة الأثاث ولكن نظيفة.

رأيت فوق طاولة صغيرة طبقاً وضعت عليه قطعة لحم مجفف، وبقربه كوبٌ من الحليب. وإلى جانب الكوب موزة تحتفظ بها، على ما يبدو، للتخلية وإن كانت تحيا بمفردها.

- لقد كنتَ تتناولين غداك، اعتذر للإزعاج.

- لقد سررتُ بزيارتك، تجيب الطفلة الجميلة، هلاً شاركتني طعامي؟ لدي قطعة أخرى من اللحم في الثلاجة، فلا تشعر بالحرَج! - أقبل الدعوة بشرط أن تقبلي دعوتي الى العشاء هذه الليلة.

راحت أجفانها ترمش برفق بالقدر الكافي الذي يجعلها تتخذ مظهر المرأة المحتشمة لا الوقحة أو السليطة.

- ولمَ لا؟

بمثل هذه البساطة، يا فراخي. هل يجزئ أحدكم على القول من الآن فصاعداً أن فتنة سان أنطونيو ليست سوى خرافة تروّجها صحف الاخبار الاجتماعية؟ إذ لم أكد أبادرها بتحية الصباح حتّى تدلّعت في غرامي. وتفتّح علبة بازيلاً وتضع بعض الزبدة في وعاء لتسخن هذه الوجبة النباتية. إنّ جديلتي الصبيّة الرائعتين تغريان بالتمسك بهما وكم أودُّ أن أسلس قيادها ممسكاً بهما. أو

ان أنهر جموحها: هيو! لكن خبرتي في هذا المجال تؤكد لي ان المبادرة ينبغي ان تكون من نصيبي. وإذا كنتم تجدون كلامي هذا فاحشاً بعض الشيء، نَبْهوني: وعندئذ سأحاول ان أكون أقل فحشاً.

نقضمُ طعامنا على مهل ونحن نتبادل النظرات الموحية الثابتة.
- لا بد أنك تحسبني فتاة سهلة؟ تمتعت فجأة، ولكن السيد بينو حدثني كثيراً عنك وهذا ما جعلني أشعر بأنني أعرفك حق المعرفة.
لا أشعر بارتياح كبير لأقوال البينوش بشأنني. إذ يصعب ان يكون المرء بمستوى تَرْهاته، ذلك أن بينوشيه دأبه المبالغة. لقد وصفني على اني السيِّف القاطع الأوحـد لهذا القرن! والرجل ذو العصا الفولاذية! والكازانوفـا الحديث المثلث القدرات!
- ولكن بالفعل يا كوميسير ما سبب هذه الزيارة؟
- لأنك الابانية، قلت.

فيقتم وجهها، الأمر الذي يُعتبرُ نظراً للون شعرها، حدثاً خارقاً غير عادي.
- لا أفهم.

- لقد تقدمت منذ بعض الوقت بطلب تأشيرة دخول الى بلادك للعودة الى هناك.

- لم يكن في نيتي ان أعود اليها، بل أن أذهب الى هناك، قالت مصوبة، لأنني لم أطق أرضها من قبل. لقد ولدت في فرنسا، ولكن بعض اقاربي ما زالوا هناك وكنت أود أن أزورهم للتعرف اليهم، ولذلك فقد تقدمت بطلب قبل موعد العطلة الأخيرة...

- ورفضوا منحك التأشيرة؟
- أجل. ألم يتم استدعاؤك الى القنصلية بعد ذلك؟
- لا، ولم استدعى الى هناك؟
- ترددت بعض الشيء قبل أن أفسر لها كيف الملائمة للمماذا التي طالعتني بها.
- هل قرأت الصحف؟ قلت بشيء من المواربة.
- بالطبع.
- وهل قرأت الأحداث المتفرقة التي جرت في شارع «لا بومب»؟
- فتقول:
- أجل، بالفعل. قصة ذلك الزجاج الذي وقع من النافذة يوم أمس، ثم حادثة قتل هذين الحارسين أثناء الليل. وهل تتولى التحقيق في القضية أيها الكوميسير؟
- على رؤوس أصابع قدمي، أقول ممازحاً.
- الآن أفهم؟ لا بد أن السيد بينوقد حدثك عني فحسبت أنك قد تستعين بي لفهم العقلية الالابانية؟
- شيء من هذا القبيل بالفعل.
- للأسف الشديد لن أكون خير عون لك، تعترف يا باباكسا وقد ابتسمت تواضعاً. لقد تلقيت تربية على الطريقة الفرنسية، وأمي فرنسية. لم يمنحني أبي الالاباني إلا الاسم. قصدت القنصلية مرتين: في المرة الأولى لأتقدم بطلب التأشيرة، وفي المرة الثانية لأحظى بالرفض. ولا أعرف أحداً من الرعايا الالابانيين.

- أتجيدين اللغة؟

- ما أجيده منها يكاد يُسْعِفَنِي في طلب قطعة بفتاك مع البطاطا
المقلية في أحد مطاعم ستروكلا، العاصمة...
وتسكب لي بعض البازيلاء. ويثملني حضورها الرقيق، وضوح
عطرها.

- أين تعملين الآن؟

- أعمل في مصنع للمواد الغذائية ولكنني الآن في إجازة لمدة ستة
أيام. ذلك أن المصنع يحاول في هذه الأثناء استقدام المواد الأولية.

كم كنت أودُّ أن أنحني عليها بصدري ماعساً صدرها الى الوراء
فود انتهائي من البازيلاء. إلّا أن مصير الأب موربيون لا يُفارق
عيني، فما هو الشيء الملح الذي أراد أن يطلعني عليه؟ ولماذا ادّعى
أنها مسألة حياة أو موت؟ الى أين ذهب؟ وما الذي دفعه الى انتزاع
رقاص ساعته اللعينة؟ عدد كبير من الأسئلة المحيرة علي أن أهتدي
الى أجوبتها!

- تبدولي شارد الذهن، يا كوميسير؟

- بالفعل.

تُراه كيف يكون عزيزك سان أنطونيو، يا حوريتي! فما يقلقني
في هذه المعمة قد يكون سلوكي أنا بالذات! مثلاً، أستيقظ هذا
الصباح بعد ليلة من الحركة والتشويق وبدل أن أهرع الى المكتب،
أقرّر البقاء في احضان فيليس. أمر مستهجن، أليس كذلك؟ ولكن
عصر الراحة لا يدوم طويلاً فأغادر المنزل وأعود الى عملي وما أنذا
أتناول طعام العشاء الى جانب ضرّاطة صغيرة لا أعرف عنها (بعد)

لا طعمَ الشفة ولا عضه الأسنان. فما الذي نَهَكَ يا سان أنطونيو؟
هل نالَ منك مرض «أبو كعيب» أم ماذا؟ أتعاني من التهاب أم
أن هرموناتي تعاني من نقصان الحيوية؟ كل هذه الأمور قابلة
للعلاج، يا بني! يجب أن تستشير الطبيب لا أن تغفو على
أريكتك. ولن يلبث قائد العيادة أن يوقر لك العلاج، على الفور!

أسهو قليلاً وقد شخصت عياني في المقوّر - المُحتشم بعض
الشيء - الذي ترتديه ياباكسا. وأشعر أنني على أهبة الغليان أيها
الفتيان.

- إذًا، يا حشاشة قلبي، أقولُ بصوت منخفض بعدَ أن طفوتُ
على السطح مجدّدًا، أنت تعلمين أنني أحتاج بعض المعلومات حول
الأبانيا الجديدة والألابانيين. لا بدّ أن هناك جالية الإبانية في
باريس، أليس كذلك؟

- أعرف مطعمًا الإبانيّاً قرب ساحة بيريز. حيث يستطيع الراغب
أن يأكل أطباق الكرسيوار والكوليانياتون ويُقال أنها تحضّر باتقان
كما في العاصمة ستروكلا.

- وما عدا هذا القصر المطبخي؟

- لا أعرف شيئاً آخر.

- أنذهب هذه الليلة لتناول العشاء فيه؟

- إذا كنت مصرّاً، فلا مانع عندي. أنا في إجازة، كما قلت لك.

نتقاسم الموزة وتسألني مضيفتي الجذابة إذا كنت أشرب
القهوة. فأرحّب بالفكرة ظناً مني أن القهوة قد تساعدني على تماك
نفسى؟ فأقتعد كُتبتُها فيما تنشغل هي بتحضير قهوتها.

.. تعيشين بمفردك؟ سألتها.

سؤال صعب، فتهزّ رأسها.

.. كان لديّ صديق. ولكننا انفصلنا.

.. مما يعني أنك في إجازة تامة؟

تقترب لتجلس ملتصقةً بي فيما نحتسي القهوة. وأحسب أن تفوّقي عليها من حيث بنيتي الجسدية (اشتتان مقابل واحدة! يترك تأثيراً طيباً ومشجعاً. وللتثبت من الأمر: ألقى بذراعي رخوةً (كما تقول غلوريا) فوق كتفها. فتبدو قانعةً مستسلمة للطعم، لا بل وديعة مستأنسة. ياباكسا، انها من هواة القبلات الملتهبة. وتأنف من اللقاءات المستعجلة بأطراف الشفاة. وما تريده هو كل شيء وعلى الفور كيما تختار الامتع فيما بعد.

وأدرك من تلهّفها مقدار ما تكابده من العزلة. لقد أنهكتها خيالات العشق وسرابه. وتودّ لو تسمع نشيد الجوقة الأجنبية، بترجمته البلجيكية: «إذاً، هذا صنيع بودوان، هذا صنيع بودوان» (...). وما هي تتأدبني فرنان ولكني لا أبالي، فأنا لست بالمتزمت. وثمة المئات من الجميلات في العالم الشاسع الأرجاء ينادين أزواجهنّ باسم سان أنطونيو حين يحاول هؤلاء أن يمتثلوا دور السوبرمان! إلا أنها برغم نشوتها تظن الى الخطأ الذي ارتكبته وتعتذر، فتنال مني الغفران بلا تردد. تتواصل المشاحنات بلياقة وتهذيب شديدين. ويبدو أن المحادثات تترث قليلاً في طريقها المسدودة، إلا أن الحوار لا يلبث أن يُستأنف مجدداً ونتوصل الى خاتمة سعيدة لكلا الطرفين. وإذا أهمّ بالتعبير عن امتناني لها وإذا

تَهْم، هي، بطلب المزيد، نسمع طرقة على بابها. فترتسم على وجهينا معالم انزعاج موحّد. فترمقني ياباكسا بعين استياء لاعنة هذا البغيض الذي يسمح لنفسه أن يُقاطع مثل هذا اللقاء الممتع النبيل، ونسمع طرقة ثانية.

- افتحي الباب! يصرخ صوت جهوري. الشرطة!

تترجع جوزة عنقي كما تتأرجح سيارة جيب مسرعة في الوعر. إذا كانت الشرطة تداهم منزل الأنسة جدائل، فسأجد نفسي في ورطة مهيبة، يا أختي. نظراً للموقف الذي أجدني فيه!

- لحظة! تجيب الصبية.

تنهض فيما تتجمّد أوصالي تحت الأغطية. وتتجه نحو الباب في حُلّة حواء، وتفتح عتلة القفل بعد أن جانبت الباب تماماً سترأ لعرها. ثم تفتح غطاء العين السحرية على مهل وتلقي نظرة خاطفة الى الخارج.

- ماذا تريدون؟ تسأل.

- هل أنت الأنسة دانلافي؟

- أجل، ولكن لماذا...

فيُسَمِّعُ صوت غريب، يشبه صوت النّقّار الكهربائي. ويهتزّ الباب وترتسم فيه ثقبٌ متلاحقة. بومضة بصر أدرك حقيقة الأمر: ياباكسا تتعرّض لإطلاق نار بمسدّسٍ من العيار الثقيل ومزوّد بكاتم صوت. وبمعجزة تنجو من رصاصات الجاني. وهل تعرفون لمن يعود الفضل في نجاة الالابانية الجميلة؟ يعود الفضل في ذلك الى الكوميسير الطيّب سان أنطونيو. فشكراً لك يا حضرة الكوميسير:

لقد أحسنت منعاً! لقد كنتُ شديد الغطنة عندما أغويت هذه
الطفلة الرقيقة، بجذبيها اليك والسيطرة عليها وإلحاقها بك وحجزها
وتجريدتها من ثيابها. فقد اضطرت للوقوف مواربة عند زاوية الباب
لأنها عارية ولا تريد أن تعرّض مفاتنها العاجية لأنظار زائريها
المقدامين. أوتدركون الآن؟ ولذلك لم يُخمن مطلق النار أن
حصوله النارية تخطيء الهدف وتتقر الجدار المقابل، تنتهي
أعمال الدُزّ الناري. فأمسك على عجل، وحسب الأولوية، بحاجتين
لا غنى لي عنهما، أقصد: سروالي ومسدسي. وباندفاع هائلة أطرح
الفتاة التي بدت لي جثة لا حياة فيها، على الأرض وأتوغّل في الرواق.
وعند المدخل أرى رجلاً تحيل الجسم يرتدي مُشمعاً أخضر وقبعة،
يَهزُع مثل المعنوق. وتصرخ حارسة المبنى عندما ترى الطقم الذي
أرتديه. ولكي أهدئ من روعها أرتدي سروالي وأهرع راكضاً في
شارع سان مارتان، مسدسي في يدي. لا أستطيع وصف المشهد، يا
إخوتي! رجل شبه عار يركض شاهراً مسدسه، والمارة كأنهم أمام
واجهة متجر لا يداورون ذهولهم! فطن الرجل الذي يرتدي مُشمعاً
إلى أنه مطارّد وراح يطلق النار. وخوفاً من أن أصيب أحد
المارة امتنعت عن الردّ على النار بالمثل. وإن يمضي وقت طويل
قبل أن أصبح هدف النيران. وسيعترضني البعض ظناً منهم
أنني مجرد معنوق تتتابني أزمة أعصاب حادة...

لديّ ما اتفقّ به على المطارّد: أنا أركض حافي القدمين ولا
تعيقني الملابس خلال الركض.

لذلك اقتربت منه دون عناء. عشرة أمتار فقط تفصلني عنه وبعد
ذلك سأنال منه. يُدرك خطورة الموقف فيطلق رصاصة إلى الورا. تنزّ

الرصاصه لصق اذني وتصيب محرك شاحنة. ستة أمتار

- قف وإلا قتلتك! أصرخ به.

ويدل أن يجيب يحاول إطلاق النار مجدداً إلا أن مسدسه فرغ من الرصاص. وعندئذ يدخل إلى أحد المباني. فالحق به. يصعد سلماً خشبياً؛ وأنا أيضاً (كما يقول مقلد تافه).

أسرع وأمسك بطرف مشمعه. وأشدّ ليسارع إلى نزعه ولا احتلّ إلا به. يواصل تسلقه السلم. وكذلك أفعّل. عاد وتقدمني بمسافة ما. وأسمع نكّة سلاحه إذ يذخره أثناء تسلقه. تجاوزنا الطبقة الأولى والثانية ثم الثالثة. وعند الطبقة الرابعة نهاية الخط: ليترجل كافة الركاب. أدرك مخططه. ينبطح فوق قرص الدرج بمحاذاة السلم. فيحتل بذلك موقعاً استراتيجياً لا يستهان به. ويتحاشى صاحبكم أن يرتكب هفوة اللحاق به. بل على العكس أسارع إلى النزول بضع درجات بحيث أتمركز عند قرص درج الطبقة الثالثة. لقد تعادلنا على نحو ما. أنا لا أستطيع الصعود وهو أيضاً لا يستطيع النزول. ومن جهتي أفضل موقعي على موقعه. تتناهى إلي من الأسفل ضوضاء حشد. ثم يتناهى وقع مدايات من صنع بولمان تمعس درجات السلم الخشبي صعوداً. ثم أرى واقيات قبعات نظامية تتوالى عند الطبقة السفلية.

- إرم سلاحك وارفع ذراعيك! يأمرني شرطي.

لقد صدق من قال أن الشرطي ليس قال الخير.

- دَعك مني الآن، يا فتى، أقول، فأنا شرطي مثلك، بل إمرع لاستدعاء التعزيزات لأنّ قاتلاً خطيراً يحتلّ الطبقة العليا.

- إن لم ترمِ سلاحك على الفور، سأطلق النار! يجيب الشرط المتعزّز.

يا له من ضعيف إيمان!

- أنا الكوميسير سان أنطونيو، أصرّح له واثقاً ممّا سيسفرع، وقّع الاسم عليه.

- وأنا الدوق دوغيز، يجيبني هذا المثقف الحصيف الذي يتابع مسلسل السيّد كوستيلو الاذاعي.

إذ يستحيل عليه أن يفهم كيف يمكن لشرطي أن يتنزّه عارياً شوارع باريس. أتفهمون الآن؟ فالشرطة مدرسة الاحتشام.

وإن لم يسعفني ملاكي الحارس على الفور (كما يقول صديقه فريدريك)^(*) بمدّ من مخيلته، فسأجد نفسي صريعاً برصاص إخ السلك، وعندئذ تكون الطامة الكبرى.

- لا تطلق النار، بحق السماء، أقول لك مجدّداً أنني سأنتطونني. إذهب الى الرقم ٤٤ في هذا الشارع، وستجد عند الآنسة دانلاي ملابسي وأوراقى الثبوتية.

- وبينما أفعل، تكون...-

فاهتدي الى فكرة خارقة.

- إن الكوميسير في مقرّتك يُدعى «نيزيل». «غاستون نيزيل الملقب بـ «العم»: صحيح أم لا؟

(*) إن سان أنطونيو هو الاسم المستعار للكاتب فريدريك دار الذي وقّع باسمه الصريح عدداً من القصص البوليسية القصيرة.

فأراهما الآن. إنهما شرطيان وقد ارتبكا لما سمعاه.

- وقبل أن يُعيّن نيزيل، كان الكوميسير يدعى «بلوشو»، «ادوار بلوشو». وكان خذّه الأيمن مكسوّاً بوحمة على هيئة لوحة نبيذ. لقد أفلحتُ، يا فتیان.

- قد يكون شرطياً بالفعل؟ يهمسُ الشرطي الثاني في اذن رفيقه. أطلب منكما أن تستدعيا بعض التعزيزات. ففي الطبقة العلوية يتمركز قاتلٌ محترف أريد اعتقاله حياً... لا حاجة للتعزيزات! يقولُ ضعيفُ الايمان متشدّقاً. وينضمُّ إلي حاملاً مسدّسه. وما أن يقترب مني حتّى يتأمل وجهي.

- بالفعل، يقول هامساً. أحسب أنك الكوميسير سان أنطونيو. - أما أنا، فوائقٌ من أنني سان أنطونيو، أجيب.

يعوزه الاحترام. فلا بدّ أن المخبول الذي ادّعى ذات يوم أن المسوح لا تصنع الكاهن، مصابٌ بلوثة في دماغه. وأراهمكم أنّ سوبرمان بالذات لو فقد ملابسه لما أطاعه مرؤوسوه. ولكي يثبت لي كفاءته تابع الدركي صعود السّلم. وبالطبع، ما كان سيحدث في مثل هذه الحالة قد حدث فعلاً. يتلقى رصاصة في وجهه. فيمكث للحظات بلا حراك، مصعوقاً، ثمّ يتدحرج الى الخلف وتستقرّ جثته الهامدة فوق درجات السّلم، رأسه الى الأسفل، ودماء غزيرة تتدفق من وجهه محدثةً جلبّةً فظيعة.

- هل فهمت الآن؟ أقولُ مخاطباً الشرطي الآخر. هيا، استدع

مفرزة الغاز المسيل للدموع بسرعة.

فيهرع الى الهواء الطلق.

لم تحدث الطلقة دويّاً بسبب الكاتم (انها عادة لدى الالابانيين). ومع ذلك شرع سكان المبنى يخرجون من مساكنهم وقد أقلقتهم الضوضاء. أسمع باباً يُفتح، فوق، في الطبقة العلوية. طلقة أخرى تتبعها صرخة وارتطام جسم بالأرضية. أسمع دبيب أقدام. لقد غادر القاتل مكانه ليختبئ في شقة أحد سكان المبنى بعد أن قتله. فاصعدُ حذراً، وبالفعل، أجدُ صحن الدرج خالياً إلا من جثة رجلٍ عجوز.

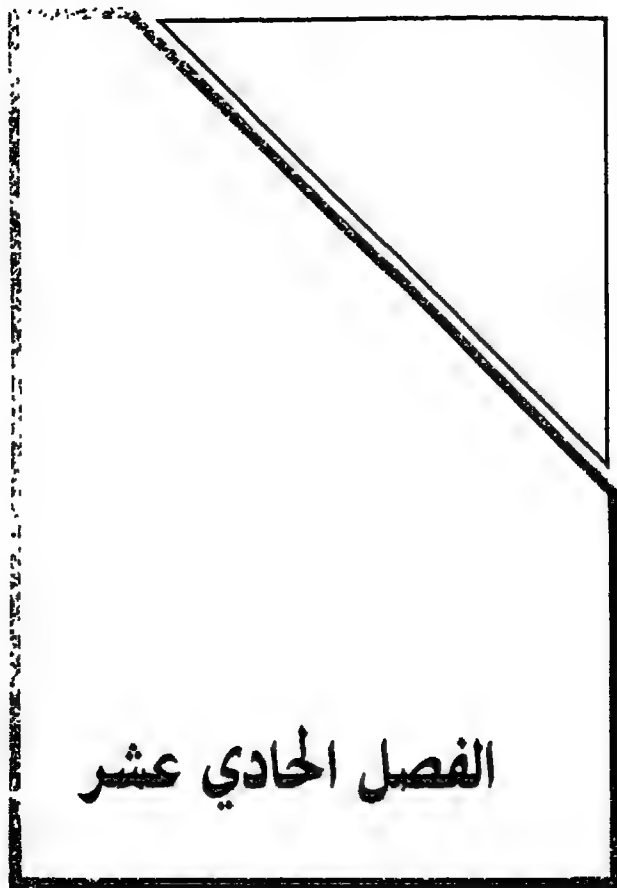
أرى البانس يتخبط في حشرجه المضحكة المبكية. فالحياة مريض يصعب أحياناً الشفاء منه.

لا يوجد في الطبقة الرابعة سوى باب واحد، إذ لا خيار لي، التصقُ بالحائط وأصوبُ أستون ريفي الغدار نحو القفل. وأطلق النار. تحدث الطلقة دويّاً هائلاً ويفتح الباب. ألقى نظرة. تبدو الشقة بانسة: حجرتان صغيرتان قذرتان وقد اثنتا بأرخص القليل، نافذة مفتوحة، فاهرع إليها... أرى قاتلي يركض فوق السطوح، لقد قفز من علو خمسة أمتار، فوق سقف التوتياء لأحد المخازن وراح يركض في اتجاه المدخنة. كم أود أن أقفز بدوري للحاق به ولكنني حالي القدمين وقد أكرس أحد عقبي. ولذلك أمدّ يدي وأغمض عيناً واحدة. إنها دائماً لحظة مريعة حين تطلق النار على فاز. فالرد على النار بالمثل أمر هين لأنه عفوي ولا يحتاج لكثير من التفكير. ولكن التصويب في اتجاه شقي فاز يتطلب قوة شخصية ليست عادية على الإطلاق. أصوبُ الى ساقيه وأطلق رصاصاتي. فينقذف الهارب في

حركة دوران وينطرحُ أرضاً. يحاول أن يتشبث بشيء ما، ولكن انحدار السطح يتلقفه يُدحرجه ثم يؤدي به. يتدحرج بسرعة متزايدة. تسقط قبعته التي تستقرّ على المعدن الرمادي كثيء منفرد وأبله. يتدحرج صوب هوة الحافة. ولثوان يُفلح في التشبث بطرف الإفريز بيد واحدة، لكنها للأسف اليد التي تمسك المسدس. لم يفلت سلاحه. ولم يتشبث بخشبة خلاصه إلا بإصبعين، ويتضح أنهما لا يكفيان لانتشال ثقله. أمكث واجماً بلا حراك، منقبض الصدر. فبرغم كونه قاتلاً محترفاً...

صرخات بعيدة، ثم جلبة ارتطام أبعد.

أتأمل القبة على السطح. وللحظات يترامى لي الكون كئيهاً وفارغاً مثل هذه القبة.



ان المعطف العسكري يُشبه السكاكين السويسريّة: فهو قابلٌ
لأن يُستخدم على أكثر من وجه. فمعطف الشرطي الخائف أعانني
على ستر عُريي شبه التام أما معطف زميله فاستخدم لستر جثة
القاتل المهشمة.

ينبغي أن اعترف أن إجراء التحقيقات في شارع مزدحم من
شوارع باريس وأنت لا ترتدي من ملابس سوى سروالاً ومعطفاً
أسود قصير، ماثرة لم أحسب في حياتي أنني ساكن قادراً عليها
مهما أرغمتني الظروف. أمكث هنا أمام أعين الفضوليين الذاهلة.
وثمة سائح أميركي يلتقط صوراً لي في كافة الأوضاع. أفتش جيوب
القاتل المقتول: أجدها فارغة. لا شيء. لا قصاصة ورق، لا رخصة
صيد، ولا حتى مجرد تذكرة للميترو: بعض الأوراق النقدية ولا شيء
آخر. أتمعن في وجه الفقيء - ما تبقى منه - والاحظ أنه أجنبي في
الثلاثين من عمره تقريباً، ومجدورٌ مثل شهر آذار. فلا داعي لهدر
الوقت عبثاً، فستهتمّ المقررة المختصة برفع بصماته. وأعود
أدراجي الى وكر ياباكسا. تبدو لي الفتاة المسكينة كتلة من الذعر.
وباصبح مكتئبة تداعبُ الثقوب التي أحدثتها الرصاصات في
الحائط. لقد اخترقت احداها سيفراً صغيراً كانت قد ابتاعته من

بابلون، فيما ثقتب أخرى صدريتها الملقاة على مسند الكرسي.
- قولي يا فرختي، هناك دائماً ما يدعو الى التسلية في حيكيم،
سالتها ممازحاً.
تسألني عن تنمة الاحداث فألخصها لها.

- لماذا اطلقوا علي النار؟ تقول متلعثمّة. ماذا فعلت؟
إنها تستخدم اللغة نفسها التي يستخدمها بينو. ذلك ان كلّ
الأبرياء يُعبرون عن مثل هذه الشكوى حين يكون القدر جائراً الى
هذا الحدّ.

- هذا ما ينبغي أن نتوصّل اليه. أقول دون أن أدخل في
التفاصيل.

لاحظوا جيّداً أن لديّ فكرة ما غير واضحة بهذا الشأن قد تكون
غائمة بعض الشيء، أعترف، ولكنها، برغم ذلك، مثيرة للاهتمام.
- لا بدّ أنه كان يُطارذك، اليس كذلك؟ تسأل بإلحاح كيما
تطمئن.

فأقول بصراحة.

- لا، يا حشاشة قلبي، أعذري صراحتي، ولكنّ المستهدف هو
أنتِ بالذات، فلو أن الجاني كان يطاردني لما تجرّأ على الزعم بأنه
شرطي برغم يقينه أن الرجل الذي جاء لزيارتك هو شرطي حقيقي.
صوّيت باتجاهها نظراتي التي لا تقاوم عيار ١٤ مزدوج، تلك
التي جعلت امبراطورة السنغال ترتعش والتي تقض مضاجي
رئيسة جمهورية الإسكيمو.

- وبالإمكان القول إنني كنتُ هنا، أليس كذلك يا حلوتي؟

لقد أعاد الإطارُ الى سُحنِتها بعض اللون.

ولاني لا أخفي عليكم شيئاً أيها الفتيان (فأنتم أوغاد ولكنْ ظرفاء) فساكشف لكم عن سرِّ الماذا في كيف تفكيري. عندما ذهب بينوش الى قنصلية الالبانيا متكرراً في زِيّ زَجَاج، تمكّن هؤلاء من التعرف اليه. فالأبله العجوز يبدو في الصورة برفقة ياباكسا، أتذكرون؟. ولذلك توصّلوا الى استنتاج منطقي مفاده أن الأنسة ذات الجدائل متورطة في القضية مما اقتضى القيام بعملية انتقامية.

قد أكون مخطئاً، ولكني أستبعد هذا الأمر.

- أنا خائفة، تُسرّ إلي ياباكسا مرتعدة.

فأضمها إلي. فيتقرق شعرها المُسبِل من حولها ويغطي نحرها الفتان.

- أنا هنا! أقول مُنبهاً.

وأبذل كلّ ما في وسعي لأكون هنا بعض الشيء!



الثامنة مساءً. وياريس تتوهج بكلّ أضواء النيون.

تدخل ياباكسا برفقة الفتى الذي أنا هو، الى المطعم الالباني عند ساحة بيرير. إنّه مطعم نموذجي. يرتدي النادلُ فيه الزي الوطني الالباني: بلوزة مقوّرة من جلدِ النمر، وجزمة خاصة

بمنظفي الجارير ذات مهماز فضي، بنطال قصير مخطط، وعقد من النوغا حول الرقبة. وقد زوّنوا شعورهم بريشة نسر الكندور، (باستثناء واحد منهم لأنه اصلع فألصق الريشة بواسطة معجون لاصق). أما الجدران فقد كُسيّت بجداريات من الرسوم. فالجدار المواجه للباب يحمل صورة جبل هولالها المكسو بالثلوج (إن أعلى قمة في الألبانيا يبلغ ارتفاعها ٨٨ سنتمتراً) أما الجدار الأيمن فزُيّن بصورة قطيع من حيوانات الكورناشاوسوره، تلك الحيوانات المخيلية التي اشتهرت بها الألبانيا. الجدار الأيسر كُسي بلوحة عملاقة تمثل معركة شوتوي والتي هزم الألبانيون خلالها جحافل كليستير الثاني الملقّب بالخزّاء الأكبر. أما الجدار النصف الفاصل بين ركنين من المطعم فقد كُرس لاحتفال تقويم بوغنازال - الأوحد، ملك الألبانيا السابق (والأوحد). والجميع يعلم أن مُلكه الذي بدأ في ٣١ كانون الثاني/يناير عام ١٩٠٤، قد انتهى في أوّل شباط/فبراير من العام نفسه بعد أن أصدر العاهلُ سلسلةً من المراسيم الملكية التي جعلت استخدام الأوراق الصحيّة إجبارياً في المراحض العامة، وأعادت تقليد استخدام قاطع - السيجار، كما حظرت بيع احزمة التورّم الفتقي بالفرق، وسمحت باستخدام أرياش الحكة في صالات السينما. وتمثل الجدارية بوغنازال - الأوحد واقفاً في عربته المكشوفة وشاهراً بدّل السيف جهازاً لإبادة الذباب. وفوق الرسم يافطة كتبت حروفها بزيت كبد سمكة المورة وتحتوي الشعار التالي: «Dhan Makhuloth Cithunanvenpâ Jarmé» مما يعني، كما أدركت عقولكم النبيلة ولا بدّ: «النصر أو الموت».

يسوقنا خادم التشريفات الى طاولتنا المنزوية. وتقوم ياباكسا

يطلب الطعام. أقول لها أن تنتقي ما يجمع الكم والنوع في وقتٍ معاً، فتطلب ما يُشكل مائدة فاخرة: طبق ضفادع بمرق التتوب؛ سُحنة المزمار بمرق الارملة كليتو؛ مشويّ الجلود قطعاً والبانبيش ملبابا، وزجاجة كوكا سودا، وهو نبيذ محليّ تعبئة نيكولها.

أنهمكُ بالتهام الطعام وفي الوقت نفسه أداغب بساقي ساق رفيقتي. وبما أنني مُتعدّد المواهب والرشاقات، لم يَحُلْ لهوي هذا دون تفحص أركان المكان. رواده أناس هادئون.

- الا تعرفين أحداً هنا؟ اسأل.

- لا، تؤكد ياباكسا بعد أن تلقي نظرةً متمعنة من حولها، لا أعرف أحداً على الإطلاق.

إنّه حزين بعض الشيء، عزيزكم سان - أ، يا جميلاتي. ويقول في سرّه إن الأمر يروح في مكانه، وأنه لا رابط فيه، ومعقد وأبله، وأن كلّ هذا لا يفضي به الى شيء، وإنّ الشموع مطفأة والعجلات صدئة منذ البداية وأنّ عقلية هؤلاء الألابانيين الذين لا يتوانون عن الإيقاع بالمرء في مكيدة الأب فرنسوا، تبدو له مُستغلفة، وأنه قد يكون من الأفضل أن يذهب الى السينما الى أحد أفلام رعاة البقر بالألوان الطبيعية، فعلى الأقل تكون المسدسات فيها محشوة بالذخيرة البيضاء!

لم أخط من العشاء بمرادي. الطعام ليس رديئاً، ولكني أفضل الدجاج بالنبيذ وشرائح لحم البقر روسيني على هذه المأكّل البربرية. ولذلك أسارع الى طلب الحساب. والاحظ أنهم أفرطوا في حساب المجموع كما أفرطوا في بذل ملح الطعام الأمر الذي لا يعدل شيئاً من مزاجي. ولكن، في آخر الأمر، لا تزال لدي الإمكانيات

(الحرارية) لدعوة ياباكسا الى مكانٍ مزوّج بالمياه الساخنة لأقلد لها
 الفصل الثالث من مسرحية آدادا وهي أوبرا من نوعٍ خاص. عند
 ركن الملابس، تستأذن الفتاة لدقائقٍ رغبتُ منها في إصلاح زينتها.
 وتتوارى في المراحيض. أرمقُ المستخدمة التي تقف قرب مشاجب
 المعاطف إلا أنها لا تستحق نظرة أعور. إنها من مخلفات عصر فانت
 وتبدو بلطفٍ لسعةٍ يعسوب. ولقتل الوقت أدنو من اللوحة الكبيرة
 المثبتة فوق الجدار المحاذي أرى قصاصات من الورق مثبتة على
 اللوحة وقد اكتست بكتابات مختلفة تتراوح من الرديء الى الأردأ.
 إنها إعلانات خاصة بالجالية الألابانية. عروض لبيع شقق وقطع
 اثاث ومنازل ريفية وسيّارات بالإضافة الى عروض عمل. ألقى نظرةً
 عابرة على مضمون الاعلانات تبدو لي اللوحة كأنها واجهة وكالة
 لبيع الشقق السكنية وتاجيرها. وقد أرفقت ببعضها صور للبيوت
 المعنّية أو للسيّارات المعروضة للبيع. وإذ همّ بإغفال بقية
 الإعلانات، يتشبّثُ بنظر الكوميسر سان أنطونيو الناخب بقصاصات
 تبدو أكبر حجماً من سواها وكتبت سطورها بواسطة الآلة الكاتبة
 بلونين. أتعلمون ماذا قرأت فيها؟ تشبثوا جيداً، هناك مزالِق وعرة!
 «ممرّضة وسائق. الخبرة ضرورية. التقدّم الى مبنى القنصلية
 العامة. الرجاء الاتصال على الرقم ٩٦٧٠٥٢٢».

اكاد لا اصّدق عينيّ (الوطنيتين).

- اهو إعلان جديد؟ أسأل الأنسة حارسة الملابس.

ويتنظرُ مرقمة المعاطف الى حيث تشير سبّابة سان أنطونيو.

- لقد وضعتُه بعد الظهر، تقول:

وعلى الاثر تتفاضى عن وجودي لتردّ الى أحد الزبائن سترته.
أسارع الى تدوين رقم الهاتف. ولا بدّ انه من أرقام احدى
الضواحي الغربية في باريس.

أشكر شفيع رجال الشرطة لأنّه ألهمني قراءة هذه الاعلانات.
لم أهدر وقتي بمجيئي إلى هذا المكان. وأشعر بالراحة لمثل هذا
اليقين. أرمقُ ساعتى فتشير الى العاشرة. لقد أطالت ياباكسا
غيبتها. فقد دخلت المراحيض منذ أكثر من عشر دقائق. أتمشى
قليلاً قبالة حارسة الملابس ذات الشاربين التي بدت قلقاً مثلي.

- هلاً ذهبت للتثبت من أنها هناك؟ أسأل.

فتذهب. ثوان معدودة. فتعودُ حارسة المبنى وقد ازدادت قلقاً.
- لقد أقفلت على نفسها في حجرة المرحاض ولا يبدر منها أي
جواب، تقول، أرجو أن لا تكون أصيبت بمكروه.
أهرع الى المرحاض وقبل أن أكسر الباب أنادي:

- ياباكسا، يا حبيبتي!

فيجيبني الصمت الأبكم. ودون تردّد أندفعُ بكفتي وأخلع قفل
الباب. اللعنة! أقول على طريقة روايات القرن الماضي: أرى رفيقة
كُتبتني (لا سريري) ممدّدة على أرضِ دورة المياه. شاحبة، أنفها
بارد وعيناها مغمضتان. أدسّ يدي تحت صدريتها لا تتبّث من أن
الرفيق طق - طق لا يزال يخفق. واحسرتها! واحسرتها! واحسرتها،
لقد أوقفته الأعطال. الفتاة فارقت الحياة. ربّما تعرّضت لحادث
طارئ. اتفحصها على عجل فلا أجد أي أثر قد يثير الشبهات. لقد
انطفأت بهدوء، من تلقاها.

كم أعجب لسرعة بديهة العاملين هنا وخفة حركتهم. إذ يأتي
خادمان ويحملان ياباكسا وينقلانها الى الحجرة الخاصة في مؤخر
المطعم. ويُستدعى طبيب من الجوار. فيحضر الى المكان ويؤكد الوفاة
معلنًا ان الفتاة المسكينة قد قضت بالسكتة القلبية. وينصحنا
بنقلها خفية الى حيث تقيم لكي تجنب صاحب المطعم مضايقات
الإجراءات القانونية. يضعونها في سيارتي وانطلق في اتجاه
المشرفة. أحسب ان عملية التشريح ضرورية.

فما رأيكم انتم؟

الفصل الثاني عشر

يا لها من نزفةٍ ليليّةٍ، اليس كذلك؟

جثةٌ ياباكسا الفاتنة ترتجّ على مسند المقعد، وتقع أحياناً على كتفي. فأضطرّ الى إزاحتها بمرفقي. كابوس حقيقي. أخيراً أصل الى المشرحة حيث أسلم جثة رفيقتي وأتصل بالطبيب الشرعي طالباً منه أن يفحصها على جناح السرعة. فقد تكون السكتة القلبية هي سبب الوفاة، إلا أنني أرتاب بالأمر.

-ستبلغني نتائج التشريح بالهاتف، سأكون في مكنتي، يا دكتور، أقول.

أغادر المكان الواجم بكثير من الإحباط وأدلفُ الى أوّل حانة صادفها حيث أكرع كأس فودكا مزدوجة. لم يكتب لهذه الفتاة أن تشهد نهاية النهار. لقد انتهت إجازتها. وما هي الآن تدافع عن نفسها في حضور الملائكة. أرجو أن لا تعاقب بشدة على خطاياها: فقد كانت تُجيد ارتكابها!

أحتسي كأساً مزدوجة أخرى من الفودكا، ولكنّ الشراب لا يشدّ

من أزري، فثمة لحظات لا تتفعل فيها أشد أنواع المسكرات في أن تمنحك النسيان.

*

* *

- إذأ، يمكن القول إنك وضعت نفسك في موقفٍ حرجٍ! يستنتج العجوز.

يشبك أصابع يديه فوق الورق النشاف، ويُمعن النظر في أظافره ويرفرقائلًا:

- إننا نجري تحرياتنا على حافة هاوية، ويستحيل أن نتقدم خطوة واحدة.

- ماذا عن قتلى الليلة المنصرمة؟ أسأل.

- طُلبَ منا أن نختم التحقيق بتقرير واقع السرقة. فعلة لصومس بوغوتا وهم يقتربون جريمتهم.

- ومن طلب منك أن تقرّر ذلك؟

- القنصل العام. لقد اتصل هاتفياً هذا الصباح.

- دون أن يقدم لك أي تفسير؟

- إنه يعلم جيداً أن السلك الدبلوماسي - في بلادنا - يتمتع بكل الامتيازات الممكنة، ولذلك ليس مرغماً على تقديم أي تفسير.

- ولكن هذه الامتيازات لا تشمل إطلاق النار على المرضى في المستشفيات، وعلى الفتيات في بيوتهم، وعلى رجال الشرطة أثناء الخدمة، كما لا تشمل على رمي الزجاجين - متكرين أم لا - من النوافذ! أقول ساخطاً.

فصّدتني الحيزبون بحركةٍ من يده.

- بالطبع لا، يقرّ الحليقُ، ولكنَّ لُبَّ المسألة نجده في القنصلية.
والحال أن القنصلية منطقة محرّمة.

- وماذا لو تسللتُ الى هذه المنطقة المحرّمة، أيها الرئيس؟
يهزّ رأسه بعنف.

- لا أريدك أن تفعل، يكفي ما جرى الليلة المنصرمة! لقد قتل
بيروبيه إثنين من موظفي القنصلية، هذا يكفي!

- أجزى لنفسي أن أذكّر بأنّ هذين الموظفين كانا يريدان قتلي. قد
لا يكون الفرقُ كبيراً، ولكنني أصرّ على التذكير بالواقعة

- لقد تسللت الى حرم القنصلية بطريقة غير قانونية! يعترض
الأصلح.

وأحسب أنّها بداية المناكفة المعتادة، بيني وبينه.

- أترى أنّه من الأفضل أن نتخاضى عن القضية برمتها؟
يقطّب قائلًا:

- وهل تلفظت بكلامٍ مماثل؟ لا، يا عزيزي، إنما أسألك أن تعمل
في الخفاء وأن تحترم قواعد اللعبة وتلتزمها. وقواعد اللعبة
الصحيحة هي أن تتجاهل أمر القنصلية.

- القنصلية، ربّما، ولكن ليس منزل القنصل الخاص.

- ماذا تقصد؟

- لقد استعلمت حول الأمر بقراءة دليل الهاتف. والحقّ يقال

إنها قراءة شاقّة، يا سيّدي المدير. القنصل يقيم في
رويل - ماليزون، شأنه شأن الأوّل.

- أي أوّل؟

- القنصل الأوّل، أي بونابرت!

لطالما اغتاط العجوز من التلميحات، وخصوصاً في اللحظات
الحرّة.

ولا بدّ أن دعايتي من صنع «ديجون»^(*) لأنّها صعدت توّاً الى
منزله.

- أوه! أرجوك يا عزيزي، دعك من الثوريات...

اصمّر على الابتسام، فذلك يحول دون رغبتني في أن أغسل شعر
رأسه (المفقود) بمحتوى محبرته.

- كنت أقول إذأ، يا حضرة المدير، إن قنصل الابانيا يُقيم في
رويل - ماليزون. وتشاء المصادفة أن الرجل يحتاج الى موظفين.
ممرضة وسائق. ولطالما أحببتُ أن أعرف عن كُتب أناس الدارة
وخصوصاً أناس الدوّارة، أردفُ قائلاً رغبةً في مضاعفة حنّقه. وكم
أود أن تزودني غداً بأوراق ثبوتية وشهادات خبرة مزوّرة، لاختبر
حسنَ طالعي...

تنفّرج أساريه.

- اعتقد أنها ليست بالفكرة الغيبيّة، يقول. بالفعل، قد تتمكّن...

(*) ديجون مدينة في جنوب فرنسا، اشتهرت بصناعة الخردل. والقول الفرنسي
الشهير أن غاز الخردل يصعد توّاً الى الأنف، تعبيراً عن الاستياء أو الامتناع.

يصدح جرس هاتفه المدوّن فيرفع السّاعة.

- المخابرة لك، يغمغم قائلاً وقد أعطاني السّاعة: الطبيب الشرعي.

يخبرني الطبيب أنّه لم يجد ما يثير الرّيبة خلال تشريح جثة ياباكسا المسكينة. ويبدو، بالفعل، أنها قضت بميتة طبيعية، الأمر الذي يكذب كلّ ظنوني.

إلا أن نتيجة التشريح النهائي والرسمية لن تكون حاسمة قبل إجراء بعض الفحوصات المخبرية الأخرى. فأشكر النّطاسي لحصافته واستأذن الرّيس بالمغادرة. فيُجيزني.

قبل أن أركن الى مخدعي، أقصدُ الحانة المقابلة لاحتساء نصف ليتر من البيرة. أجد بيرو يخطبُ في جمع تحلّق حوله بأطناپ. لاحظ قطعاً من اللاصق المشمّع تكسو جبينه، أنفه المهشّم، وعينه المزّنة بالسّواد، اثر خياطة جراح على أحد حاجبيه، أمّا ذراعه فلنّت بوشاح رُبط بعنقه. ويبرو يروي تفاصيل «الحادثة».

- ترتمي الحيزيون تحت عجلات الباص. كاد يدهسها ويطحن عظامها. أما أنا فلا أتردّد لثانية واحدة: أندفع نحوها وأطوق خصرها وأدفعها نحو الرصيف، وبعد ذلك لا يتسنّى لي أن اتحاشى الباص فيصدمني. ظننتُ لوهلة أن راسي قد تفلّع. ثمّ احتشد المارة، حاولت أن أقاوم، لكنهم رفعوني على الأكتاف كبطل. ولن تصدّقوا إذا قلت لكم إن عجوزاً يحملُ نَزّ المحاربين القدامى طلب بطاقتين لكي يقوم بالإجراءات اللازمة لمنحي ميدالية الإنقاذ.

تسود همهمة إعجاب بمثل هذا العمل البطولي. وأرى أنه الوقت المناسب لأدلو بدلوي وبالفم الملائن فأخاطبُ الساذج الذي لم يز شيئاً ويروي الترهات دون قصد:

- إذا، يا بيرو، أقول راتياً لحاله، هل هدأت زوجتك أخيراً؟ لقد صنعت بك صنيع الأعداء، أيا أرنبني المسكين. أتعلم أن ما حل بك هو سبب شرعي للطلاق. فإذا عقدت العزم على ذلك، اعتبرني أول الشهود.

- ما هذا الهراء الذي ترويه! غمغم الدنيء وهو يرمقني بنظرات كئيبة.

ويروح المتفرجون يتساعلون حول حقيقة الأمر.

- إن زوجته القولة ستقتله ذات يوم، تنبأت قائلاً بنبرة مأساوية. فهو ضعيف حيالها، هذا البدين البائس!

تسود قهقهة عامة. ويكيل الندماء بحراً من التعليقات الساخرة حول صدام بدانته والحرم المصون. فيبلغ منه الغيظ مبلغاً يجعل المهان في كبريائه يشق رخام الطاولة بضربة من قبضته.

- لا أسمع على الإطلاق أن توصف السيِّدة بيروية بالقولة! يُرعدُ حضرته. وإذا طرأ أي سوء تفاهم مع زوجتي، فهذا لا يعني أحداً سواي. ففي كلِّ الزيجات أسباب للخلافات البسيطة، ومن شأن ذلك أن يُلهبَ الشاعر ويجنِّدها!

يكرع قدحه وينهض.

- وإذا كنتم تحسبون أنني سأدفع ثمن كؤوسكم فلا بد أنكم حالمون!

الحق به على بُعد خمسين متراً من الحانة حيث كان يسير
متثاقلاً عارجاً مثل حمار عجوز.

- اسمع أيها البدين:

- تبّاً لك! فالحاذقون الذين يريدون جعل وجهي مثل مؤخرة
السعدان لا يستحقون رفقتي! سواء كانوا من رؤسائي في التراب
المهني أم لا، سيّان عندي!

صرفت عشر دقائق وثلاث كؤوس من السنزانو في الحانة التالية
قبل أن أفلح في استرضائه.

وعندما استكانت ثورة غضبه، أخيراً، صار بإمكانني التحدّث
اليه في أمور العمل.

- اسمعني جيّداً، أيها الخُرجُ العتيق، أقول له، غداً سننشئ
هجوماً شاملاً على القنصلية.

- هل اندلعت الحرب؟

- لا، ليس بعد. ولكن إذا استطعت أن تكون بمستوى
المسؤولية، ستمكن من تلافي نشوب الحرب. وهاك ما سنفعل.

وأشرح له خطتي.

أشرح خطتي لبيرو وليس لكم أنتم، لأنكم، في آخر الأمر، لستم
بمستوى المسؤولية. وثمة أمسيات لا أطيعُ فيها أمثالكم!

الفصل الثالث عشر

في صبيحة اليوم التالي، أَدْلَفُ الى المكتب وقد ارتديت زياً خاصاً.
 طقم رمادي غامق، عتيقٌ لكنّه نظيف، قميص أبيض وربطة عنق
 سوداء، وحذاء مُفْلَعٌ لكنه ملمّع باتقان. لقد أنبأتني المرأة بالخبر
 اليقين. كلُّ ما في مظهري يدل على مهنتي كسائقٍ خاصٍ لعلية القوم
 ولكنّ في ثيابه المدنية. وقد دفعني حرصي على الدقة الى اعتماد بيريه
 خُلديّة، ذات إبريم مُشَقَّق.

يُبدى العجوز إذ يراني رُضاً ظاهراً في عينيه الملتصتين.
 - هأكَ الأوراق وشهادات الخبرة. إذ قد يتصل جماعة القنصلية
 بمخدوميك السابقين: وفي هذه الحال سيحصلون على معلوماتٍ
 مُرضية بشأنك.

قيل أن أندفع كالقطار في اتجاه رويل - مالميزون أمرٌ بمنزل
 موربيون. لم يَعدْ بعد الى الدار (كما يقول أهل السافوا).
 قططه الجائعة البائسة تهرُجُ للمواء خلف الباب، ما يُثير شفقتي
 عليها، فاطلب من حاجبة المبنى أن تهتم بها في انتظار العودة
 (الميمونة ولكن الاشكالية) لأستاذي العجوز.
 أقودُ سيارتي الجكوار طيراناً حتى محطة رويل. فأركنها حيث

ينبغي وأستقل سيارة أجرة لتقويني الى دارة تقع في جوار قصر
فيفين، حيث يقيمُ سعادة القنصل. المنزلُ عادي من طراز إيل
دوفرانس أشبه بكعكة الكريما، ويدعى «جنبة الرباطة»^(٥)، تحيط به
حديقة واسعة لا تقل مساحتها عن هكتارين معظمها أرض بور. وما
إن أقرع جرس البوابة الخارجية حتى يهرع إليّ كلبان المانيان لا
يُخفيان أنيابهما المسننة. وعبثاً يجفّ حلقي في مناداتهما بالطف
الاسماء: ميدور، بوبي، قطتي الوادعة وحتى أرنبى الصغير، يمكث
الكلبان على تريضهما واستعدادتهما للظاهر.

رجلٌ حليق الرأس له سحنةٌ مصارع مثالية يتقدم نحوي بحركة
آلية بالغة الدقة.

احسبُ أنه أحد أقرباء الغوريلا الذي قُتل في القنصلية في تلك
الليلة حتى ولو كانت درجة القربى لا تتعدى صديق الأب.

— ماذا تريد؟ يسألني بجفاء.

أبأل شفّتي بطرف لساني قبل أن أجيبه مُتصنعاً رباطة
الجاش:

— لقد جنّْتُ للسؤال عن وظيفة السائق.

يرمقني بنظراتٍ فاحصة من أعلى رأسي حتى قدمي ومن الكتف
الى الكتف وفي الاتجاه المعاكس. ثم تبدر منه حركة استياء ويفتح
البوابة مخاطباً الكلبين بكلمات لا أفهمها. فقد تلفظ بعبارات
الأبانية، إذ يبدو أنّ هذين الكلبين الظرفيين لا يتكلمان الفرنسية.

(*) هونوع من التيات.

نسلُكُ ممراً تكسوه الأعشاب البرية بين صفين من الأشجار.
وإذا بالمنزل يُطالعنا وسط جُنيّة فسيحة. وبرغم أن النهار لا يزال
في أوله يبدو المنظر وكأنّه مضاء بأشعة قمرية خافتة ومردّ هذا
الانطباع، في ظنيّ، شحوب لون جدرانهِ وسطحهِ الأردواز المائل الى
الاخضرار.

يُدخلني الحارسُ الى ردهة عتيقة بعض الشيء حيث انتظر فيما
يصعدُ درجاً من الخشب. أمكث للحظات أتتنشق الرائحة العطنة
التي تملأ المكان (كما يقال في مصنع سيمكا). فتتناهى إليّ أصدااء
تسجيل لموسيقى موزار. موزار، إنها موسيقى جميلة.

أسمع وقع أقدام فالتفت، فيطالعني وجهُ شاب نحيل وشاحب،
ضخم الأنف ويرتدي ملابس سوداء. أحسبُ أنّه، بلا ريب، سكرتير
القنصل الذي رأيته بالنظارة من نافذة بيت مورييون.
يرمقني بنظراتٍ خالية من اللطف (ذلك أن اللطف متعذّرٌ معه).

- هل أنت سائق محترف؟ يسألني بجفاء.

- أجل يا سيّدي. إذا أردت أن تطلع على شهادات الخبرة التي
أحملها، تفضّل. لقد عملت طوال السنوات الست المنصرمة كسائقٍ
خاص لكونت دو لا موت بورّييه.

- ولماذا تخلّيت عن العمل هناك؟

- هو الذي تخلّى عنّا، يا سيّد، أجيبه بشيء من الأسى. لقد توفي
حضرة الكونت خلال الأسبوع المنصرم.

يدقّق في الأوراق التي تدبرها لي الكهلُ هذا الصباح.

- وكيف علمت أننا نبحث عن سائق؟

- لقد ابلغني بذلك أحد أصدقائي الذي يعمل في مطعم الاباني
عند ساحة بيرير.

- لقد كُتِب في الاعلان أنّ على الراغبين أن يتّصلوا هاتفياً لا ان
يتقدّموا شخصياً.

- أعلم يا سيّدي، ولكنني ارتأيت أنّ المقابلة الشخصية أفضل
بكثير، لذلك تقدّمت شخصياً دون أن اتّصل بكم أولاً.

يواصل تحديقه بي. وأرى في عينيه مقداراً من الرقّة يُعادل الرقّة
التي قد ألحها في عينيّ قطّ ربط ذنبه الى جرس.

- اتسمح لي بها لبعض الوقت؟ يقول ملوّحاً بأوراقه.

ثم يغادر. لقد كان الرئيس محقّاً في التزام تدابير الحيلة.
فسيعمد هذا المافون فعلاً الى الاتصال بمخدومي السابقين.
وبمعنى ما إنها علامة جيّدة. فهذا يعني أنّه يوافق مبدئياً على
استخدامي.

وبالفعل ما هو يعود بعد أن تغيب لمدة ربع ساعة، ويبلغني رده
الاجابي. ثم يشرح لي شروط العمل وما انذا أصبحت موظفاً لدى
الالابانيين. وسأبدأ في فترة ما بعد الظهر. يبدو الأمر أسهل ما
يكون، اليس كذلك؟



آه، كم يبدو وسيماً عزيزكم سان - أ. ببدلة السائق الباذخة، يا
أحبائي! فانا لا أجد صعوبة في التكرّر بأيّ شيء كما تعلمون. وقد
حدث لي أن تتكرّرت في شيء عامل وقسّ وجرّار، وانتحلت شخصية

أوسيدار وشخصية فحّام ورجل اطفاء وكهل ثمانيني ومصاب
بالسلس، وشخصية فتاة عريقة النسب، وشخصية مصاصة
ومجنّد وسنسكريتي ومظلة وجنرال وفرو وهز مجاري ومنظف
مداخن وبطريق ولويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر والسادس
عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والعشرين.
وشخصية احدى قمم ألونمسون، وشخصية محاسب وبائع
مرطبات وعربة يد وزجاج ومشاكس وحوذي وكاردينال وناظر محطة
وزوج ملكة انكلترا وياباني، ومادة مطاطة، ونبييل حزين وحاخام
وروين هود وداني روين وروينسون وثوب وصنوبر وروب غريبه^(٥)
ورجل آلي ومقدام ومظلي، ولكنها المرة الأولى التي انتكر فيها في
شخصية سائق. إن بزة الرقيق هذه تبدو كأنها صنعت لي
خصيصاً. الأزرار مُلصّعة، الخياطة متقنة، السترة على المقياس
والكسكيت على أحسن ما يكون، وأستطيع حين ارتديها أن أكون
موديلاً مثالياً لمجلة مختصة بالأزياء عبر العصور، بدءاً بزي آدم
وصولاً الى بدلة الاحتفالات الرسمية والسترة المخططة وقبّعة
الارياش التي تزيّن الاستعراضات العسكرية.

يبدو لي الرجل الذي يستقبلني رَجُلٌ ثَقَّةٌ فاطمئن الى رَفّةِ رموشه.
- أنا السيد دادونك هيثوردي، السكرتير الأول لسعادة القنصل،
يقول معرّفاً بنفسه. ويستبدأ بتجهيز احدى السيارات: سيارة
البيجو، لأنك ستذهب عصر هذا اليوم الى النورماندي.
فانحني احتراماً. ويشيرُ الى المرآب فانصرفُ الى مشاغلي
الجديدة.

(٥) أحد الروائيين الفرنسيين المعاصرين؟ رائد تيار «الرواية الجديدة».

يحتوي المَرَّاب على ثلاث سيارَات. سيارَة قديمة طراز بنتلي بانخة مثل حفل استقبال في بكتفهام بالاس، وسيارة بيجو ٤٠٤ رمادية وسيارة دوفين سوداء. فاقترَب من الـ ٤٠٤ إذاً لا أعرف تماماً ماذا يعني وادونك هيثودور بـ «تجهيزها». فهي جاهزة على أربع عجلات وعبئت بالكميات اللازمة من البنزين والزيت. وكلُّ ما أستطيعه هو أن المع غطاها لكي تستعيد لمعانها الغابر.

أقودها الى خارج المَرَّاب وادنو بها من المنزل حيث عثرتُ على صنوبر ماء خلف المبنى. وأنهمك بتلميع العربة بكلِّ ما أوتيتُ من نشاط. ذلك اني اشعر بأن أحداً ما يراقبني فأبدلُ ما في وسعي لالعب دوري باتقان. يبدو المنزلُ غارقاً في سكينته المبهجة مثل محاضرة للآب دويانلو حول حياة الرهبان.

يسودها صمت شبه مُطبق. إذ يبدو لي أنَّ هذا المنزل الواسع لا تسكنه إلا قلة قليلة من الاشخاص. وعندما أرى أن سيارتي أصبحت بلمعان الحجارة الكريمة التي ترصع تاج ملكة انكلترا، أعيدها الى المَرَّاب. وبين الحين والآخر يقترب مني الكلبان ويتشعَّمان ثيابي على نحوٍ يُثير فيَّ القلق.

ليس لأنني خائف أو أي شيء من هذا القبيل، ولكنَّ الحقَّ يقال: كم كنت أودُّ أن أشاهد فيلماً للوريل وهاردي بدل كل هذا الهراء!

أعودُ أدراجي الى المنزل بخطواتٍ رشيقة، رغبةً مني في زيارة أرحائه قليلاً، أوليس هذا سبب مجيئي الى هنا؟ وفيما أتقدَّم في اتجاهه التي نظرة عاجلة على واجهة بنائه البائسة. والمُع طيفاً خلف إحدى النوافذ في الطبقة الأولى. إنها امرأة، أراحت الستارة قليلاً ومكثت ترمقني بنظراتٍ فاحصة. وكلَّما اقتربت من المنزل تبدَّى لي

انها امرأة رائعة الجمال. انها شقراء، شابة متناسقة الملامح.
فانحني في تحية اجلالٍ . وادخلُ الى المنزل من باب العموم.

المطبخ هو اكثر حجرات المنزل خراباً. إذ يبدو طلاء جدرانها
مقشراً، وفي وسطه قدر هائل في شكل كروي عُلق بواسطة سلسلة
مثبتة في السقف. اما قرن الغاز فقد كساه الصدا. الحقيقة أن
القنصل لا يُكَبِّد جيوبه الكثير لإصلاح ما تهدم. أمام فرن الغاز
تقف فتاة جميلة ذات استدارات بانحة طراز راقصات التعري.
انها منهمكة بتسخين رضاعة حليب في وعاء من الماء الساخن.
فأستنتج على الفور أنه يوجد طفلٌ رضيع بين سكان هذا المنزل.

لم أرَ من الفتاة في البداية سوى ظهرها وما يتبع. ولا أشعر بأنني
على عجلةٍ من أمري قبل أن تستدير، ذلك أن ناحية القفا منها لا
تخلو على الإطلاق مما يُثير ويمتع النظر. الخصر شيق والردفان على
استدارةٍ هي من بين أجمل ما رأيت، أما ساقاها ففيهما ما قد
يُضرم صدر تمثال خصي بالحسد. ثم تستدير فجأة فيسقط في يدي.
إذ أرى أن الفتاة صهباء وتلتصق حدقتها الخضراوان بنمشٍ
مُذهَّب فيما تتألق بشرة وجهها بنمشٍ داكن. وما إن تقع عينك على
شفتيها حتى تحسب أن تياراً قد مسَّ أوصالك. ولكي تتمكن من
الإفلات يلزمك مخل وجزار وديزينة قوارير من أوكسيجين اللحام.

تطالعي بابتسامة. فتبدو أسنانها البيضاء منشدة لائق الحياة
والجمال والحب بكل ما يحيط بها ويكتنفها!

- صباح الخير، أقول مفزداً، ذلك اني، كما تعلمون جيداً، امتلك
دائماً القول المناسب لبدء المحادثة.
- صباح الخير، تجيبُ على الفور.

- أنا السائق الجديد، أقول معرّفاً بنفسى: انطوان سيمون!
- وأنا ادعى كلير باييه، تجيبُ الطفلة الصهباء، الممرضة الجديدة.

- وزبونك كم يبلغ من العمر؟
- ستة أشهر. انه جميل الطلعة وفي صحّة ممتازة. أما رايته بعد؟

- لقد وصلت لتوي.

- أنا أيضاً...

تلمس الرضّاعة للتنبّث من درجة سخونتها. ويبدو أنها لم تبلغ بعد السخونة المطلوبة لأنها أعادتها الى وعاء المياه الغالية.

- إنه منزل غريب، تتمم قائلة. يكاد يكون خالياً من السكان.
- أحقّاً؟

- أحسبُ أنه باستثناء الطفل ليس هناك سوى رجلين آخرين في الوقت الحاضر.

- أحقّاً؟

- حقاً!

- أستطيع أن أوّكد لك وجود شخص آخر: لقد شاهدتها خلف إحدى نوافذ الطبقة الأولى: إنها امرأة شقراء تبدو عليها سماتُ الكآبة.

- ألا يُعقل أن تكون أمّ الطفل؟

- ربّما.

- هل قابلت القنصل؟ تسأل.

- لا، وأنت؟

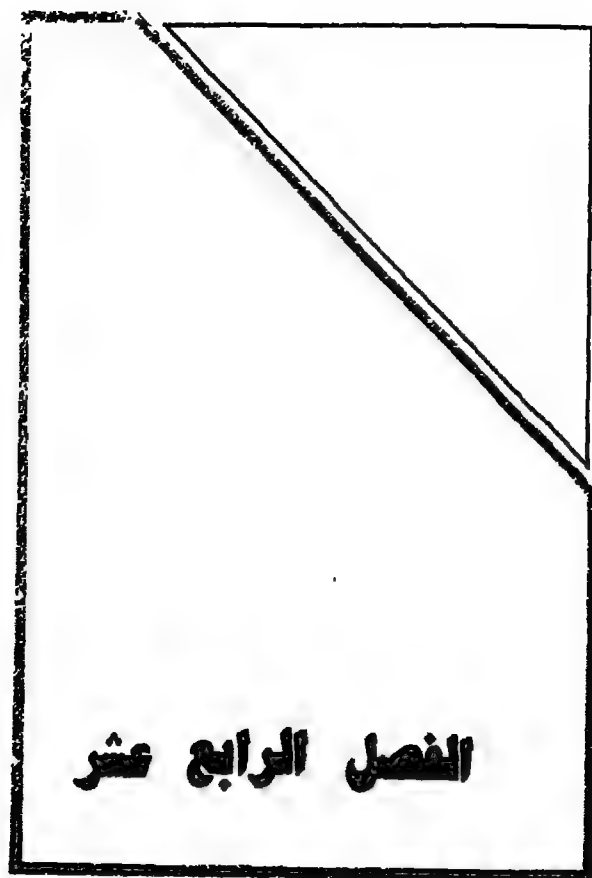
- لم أره بعد.

وتحصل الرضاعة وتغادرني بابتسامة عريضة محملة بالوعود
كبيان انتخابي.

أمكث في المطبخ وحيداً. أفتح الخزائن وأجد فيها كمية كبيرة من
المؤن. يبدو أن أهل البيت يعانون من نقص في عود العاملين. لم
أزح حتى الآن طاهية أو مدبرة منزل أو خادمة.

هناك العتيعت الذي فتح لي الباب، والسكرتير الشاحب في
ملابس الحداد والطفل الرضيع والمرأة الشقراء... بالإضافة الى
ممرضة وسائق استقدا للتق... والحقيقة، ودون رغبة مني في
انتحال أدوار شرلوك^(*)، إنني أرتاب في الحكاية برمتها. إذ يبدو لي
من المستهجن فعلاً أن يستقدم سائق وممرضة للعمل في هذا المنزل
الخراب الذي ينضج بالرطوبة، دون أن يكون فيه أي مستخدم آخر.
أمكث لحظات أخرى في المطبخ. ولكني لست من طراز أولئك
الذين يستوطنون أماكن زياراتهم؛ وفي غضون خمس دقائق أغادره
لاستطلاع أرجاء أخرى.

(*) شرلوك هولمز بطل روايات آرثر كونان دويل البوليسية. (م. ع.)



صالة طعام فسيحة كُست جدرانها بتليسات خشبية وخزانة
أطباق على الطريقة الفرنسية. ردهة استقبال أكثر اتساعاً أيضاً
وقد أعلت أفاريز حيطانها الناتئة في شكل هلاليات، ثم غرفة مكتب
تفوح منها رائحة الخشب المتعفن.

هذا كل شيء بالنسبة للطبقة الأرضية، فأثاثها عتيق وبشع
وبال، بعض الكنبات غطيت بشراشف وبدت مصاريع النوافذ كأنها
أقفلت منذ زمن بعيد ولا بدّ أنه بات يصعب فتحها بسبب تراكم
الصدأ على أقفالها. لذلك أحسب، وحسباني صائب بلا ريب، أن
سعادته لا يُقيم الكثير من الاحتفالات الراقصة في داره.

إنه قصر «غراب الغاية النائمة»، والحق يُقال! فالمساكن
الشاغرة لها رائحة خاصة. أمّا هذا المسكن فيعقبُ برائحة أكثر
نفاذاً: إذ يعقبُ برائحة المساكن المهجورة! ويخطر لذهنه أن يدعو
إليه ثلاث جرارات بولدوزر لتلعب لعبة الاستغماية في أرجائه.

أعود أدراجي الى ردهة المدخل وأسترق النظر في اتجاه الباب.
ما زالت حقيتي هناك لأن وادونك هيثوردو لم يقل لي بعد في أية
غرفة سأقيم.

ما العمل؟ انتظر هنا أم أواصل جولتي الاستكشافية؟

أغامرُ بصعود السلم. فتبدولي الطبقة الأولى خاليةً من الروائح المقبضة التي تسود الطبقة الأرضية. فالرائحة هنا أقربُ إلى روائح الأنس: ومن خلالها يُدرك المرء أنَّ أناساً يقيمون فيها. نحيب طفل يتناهى من مكان ما. أنعطف عند الزاوية فألحُ صديقي الغوريلاً جالساً فوق كنبةٍ عتيقة شبه محطمة. إنَّه يقرأُ جُرناً لا إلبانيا. وما إنَّ يثنِّبهُ الى وجودي يخفضُ جُرْناله ويحدِّجني بنظراتٍ مفترسة.

— ماذا تريد؟

— أن أعمل، أجب. لقد أنهيت غسل الـ ٤٠٤ وأودُّ أن أعرف ماذا أفعل أيضاً.

— عُد الى الأسفل، وهناك سيقولون لك ماذا ستفعل.

لماذا يجلس في هذا الرواق، هذا الرجل البارز العضلات؟ احسبُ أنَّه مكث هنا لمراقبة أحد ما. ولكن مَنْ؟ الممرضة الجديدة؟ أم الامراة الشقراء؟

أهبط السلم على مهل. ويثيرُ في بكاء الطفل الذي يتردَّد في أرجاء هذا المنزل الخرب، مشاعر غريبة. إذ تسودُ المكان أجواء غامضة تدعو الى الإحباط والقلق وتُشيع مَسحةً من الوجوم الخانق...

كم أوثر التنزُّه في حديقة عامَّة. فالطقس جميل، عذبٌ ومكثَرٌ بعض الشيء وكأنَّ السماء تسيلُ في جفَناثِ هائلة تجرُّها نسائم الغرب. أعودُ الفسحة أمام واجهة المبنى حيث نافذة المرأة الشقراء. أرى أنها غادرت مرقبها. وأسمعها تتحدث الى شخصٍ

ما. تتكلم الالابانية بنبرة انفعال حاد. ثم جلبة باب يُصَفَّق بقوة.
ويخيم الصمتُ مجدداً، مُطبّقاً مثل مياه راكدة، خداعاً ورهيباً!
ولحسن الحظ أنّ كليهما هنا. أنّها، على الأقل، زاخرة بالحياة.
يظهر وادونك هيثوردو على العتبة. ويفرقع أصابعه ليشير عليّ
بالاقتراب منه.

— ستغادر الآن برفقة الممرضة والطفل، يقول.

يسحب من جيبه قصاصة ورق.

— ستقلّ الممرضة والطفل الى هذا العنوان، بعد ذلك بإمكانك أن
تمضي ليلتك حيث تشاء على أن تكون هنا عصر يوم الغد، لنقل عند
السابعة مساءً.

فأشكر السيّد على هذه الإجازة القصيرة ولكن الفورية.

— أعذرنّي يا سيّد، أغغم قائلًا، هلاًّ منحتني سلفة مئة فرنك من
راتب هذا الشهر، ذلك أنني، كما تعلم... هه؟

إنّ مثل هذه التفاصيل التافهة هي التي تجعل الخدعة اشدّ
واقعية من الواقع. ولا بدّ أن آخر شكوك وادونك هيثوردو بشأني
قد تبدّدت الآن نهائياً. فيخرج محفظته من جيبه ويُعطيني ورقة
نقدية من فئة المئة.

— شكراً جزيلاً يا سيدي، أقول.

— هناك أمر آخر، يقول مقاطعاً. احرص أن ترتدي غداً برّتك
الرسمية الكاملة. فسعادته سيذهب الى حفل استقبال رسمي.
فأبادر قائلًا.

— سمعاً وطاعة يا سيدي.

— حسناً إذاً، اذهب وساعد المريضة.

أعود الى الردهة حيث تنتظرني كليل وقد حملت الطفل بين ذراعيها. فأحمل حقيبة المريضة الجميلة وحقيبة الطفل وأقود مرافقتي الفاتنة الى السيارة. وبينما أضع الحقائب في صندوق السيارة تحت انظار وادونك الثاقبة، أسمع صراخاً حاداً مصدره المنزل.

فالتفت في اتجاه مصدر الصوت إلا أن هيثوردو يهز رأسه مبتسماً.

— دعك من هذا! يقول لي بصوت مطمئن، إنه الراديو، حيث تذاغ حلقة من مسلسل بوليبي.

اعترف أن تفسيره هذا يصدر عن مخيلة بانسة، إلا أنني اظاهر بالاعتناع.

وهوب لالا! ها نحن ننتقل. انظر الى قصاصة الورق التي زودني بها السكرتير. وأقرأ: «لوكلوفلوري» في فرنوي سور آفر. فأسلك اتجاه سان جرمان لأصل الى الطريق الفرعية التي تقضي الى الأوتوستراد الغربي. أنظر الى كليل خلست وقد جلست برفقة الرضيع النحاب في المقعد الخلفي. وألاحظ أن هذا الأخير لا يحرك ساكناً.

— أهو نائم؟ أسأل.

— أجل.

— ألا تريد أن تنتقلي الى المقعد الأمامي؟

- ولماذا أفعل؟ تقول كبير بشيء من الدهشة (أو بشيء من تصنع الدهشة).

- لأنني أبغض أن أصرف عمري وأنا لا أرى الناس إلا عبر المرأة الارتدادية. بالإضافة الى ما يعمله ذلك من خطر حقيقي بالنسبة للسائق. فحين تجلسين بقربي لن أضطرّ الى التحديق المتواصل بالمرأة...

وإذ تتجاهل سؤالي، ألحّ عليها بنظرة جانبية أردتها نظرة إغواء من الحرير الطبيعي.

- يجب أن تأخذي بعين الاعتبار سلامتك وسلامة الطفل الذي وضع في رعايتك يا كبير.

- كفّ عن هذارك! تقول بجفاء. كم أبغض الخدم المحظيين الذين يمثلون دور زير النساء.

كانها تبصق في وجهي، أيها الفتيان. لقد طرقت الباب الخاطئ في تصرّي مع هذه الفتاة: إنها متعلّقة، الأنسة جشمّة! لا تحبّ الثثرة وليس في نيتها الخلط بين القمع والزّوان.

يا لخيبة الأمل. بدعة مثل هذه كم يسيل لها لعابي. فلطالما عشقت البدع المائلة.

انطلق مسرعاً، إذأ، في اتجاه النورماندي. ليست مسقط رأسي ولكنّها، برغم ذلك، منطقة جميلة. صمتها يسقمني. فعندما أكون برفقة فتاة جميلة وتكون ضمن مجالي الحيوي يُصبح الأمر أقوى منّي. وأشعر برغبة ملحة في أن أروي لها قصّة الرجل الذي شاهد

الرجل الذي شاهد العظم. وبعد وقتٍ أعادُ الإلحاح مواربُهُ
(ومتأهباً لتلقي الردّ).

- يتراءى لي أننا وقعنا على أناسٍ غريبين الأطوار، اليس كذلك؟
أقول. يبدو لي أنَّ الألابانيين ليسوا على خير ما يرام هذا العام.

- صحيح، تقرّ الأنسة حريق، من جهتي لستُ نادمة على مغادرة
ذلك المنزل المشؤوم.

وتحاول تهدئة المخّاط الذي راح ييدي بعض علامات الضيق.
أراقبها في المرأة كيف ترعاه بحركات حاذقة ورقيقة.

كم هو جميل فنّ رعاية الأطفال.

- ألم يخطر لك أبداً أن تعمي لحسابك الخاص؟ أسألها.

- ماذا تقصد؟

- أقصد ألا تراودك الرغبة أحياناً في رعاية طفل من صلبك؟

- بلى، أحياناً، تقول كثير.

- عندما تتخذين القرار الحاسم بذلك، ليس عليك إلا أن تشيري
علي باصبعك، فمثل هذه الخدمات اختصاصنا، وأنا واثق أننا سويّاً
قد نفلح في انتاج ما يُرضي.

وإن بها تقطّب مجدداً. إذ لا بدّ أنها عثرت على قَيْسها منذ بعض
الوقت وما هي تلعب دور العاشقة المخلصة. والإخلاص ليس ميلاً
باطنياً كما يُحَيَّل لمعظم الناس بل هو نزوة عابرة. تكون احداهنّ
معرّضة لأي اغواء وما إن تقع على الفتى الملائم حتى تلعب لعبة
الحقوق الحصرية! وتحسب أنها أصبحت مرتبطة بعقد وفاء. فلا

يعود بالإمكان من أصبعها الصغيرة ولو بواسطة ملقط الماس! ثم ذات صباح يُعاودها اللال من هوبجها فيستحيل حرزها الحرير الى مركز استقبال وإرشاد. ولكنّها بين الفاصلتين تكون قد افلحت في التمثيل. وصدّقت دعوتها، وراحت تنزّه مفاتنها مثل مقدّسات محرّمة. احذروا اللمس، انها مُلكية أرنست أوفلان! تبّاً لهنّ من فاسقات! هيا! السوسة في الدماغ. غرامهنّ السينما ويصنعن الأفلام التي تناسب أدواقهنّ! وما إن يُبادر أبلة ما الى مغازلتهم حتّى يتمنّعن!

- هل أنت مخطوبة؟ أسألها.

- لا، تجيبني.

- هيا أوتزعمين أنّ حياتك مقفرة وتشبه صحراء «غوبي»؟

- لديّ صديقة، تقول.

فتنتط جوزة عنقي من هول المفاجأة! لقد سمعتُ جيّداً، قالت صديقة، في صيغة المؤنث، اليس كذلك أيّها الفتّيان؟ أسمعتُم ما سمعته؟ هناك خطأ ما. ها أنذا أقع على واحدة من أنصار التحرّر الجنسي الأنسة تكشف أوراقها كاملة! وأحسّب، على هذه الحال، انها لن تحصل على مولودها الخاص بين ليلة وضحاها (إذا جاز لي القول). وماذا لو كانت كاذبة، أنّه صنيع النساء المثالي! صبيّ في الخامسة والسبعين لا يتعالم نفسه حيال ما أسرت به! فتاة جميلة مثل كلير، بالصورة البارزة الملوّنة، ويعطر روشا وشرفة مطّلة على البحر، ثمّ يتضح أنها الخسارة الكبرى للإنسانية المعذّبة: لا بد أن في الأمر ما يدفع الى الجنون. ولا يرغب واحدنا عندها إلّا أن يحمل عصا الحجّ قاصداً عذراء لورد ليضيء شمعاً بمثابة نخبها! ولكن

للاسف الشديد ما عاد المرء يعثر على عصي الحجاج إلا في أقاصي
أرياف فرنسا.

- لقد خاب ظني، أقول دون قصدٍ متمماً.
إلا أن كلامي هذا لا يستثير فيها أي انفعال.
- حقاً؟

- ربةً للجمال مثلك، كيف تغامرُ بأن يشعلها الحرُّ الكنسي، إنّه
أمرٌ مخيبٌ. ألم تعرفي رجالاً من قبل؟
- بلى، ولكن التجربة لم تكن مُقنعة.
- ذلك أنك وقعت على الرجل غير المناسب. ولكن دعينا من هذا
كله، ففي آخر الأمر لكل منا ذوقه ورغباته.

*

* *

«لوكلوروي» هو عبارة عن نزلٍ نورماندي ظريف، يقع وسط
حديقة فسيحة على ضفاف «الارف». وتُشرف على الدارة عانستان
مهففتان تستقبلان وفودنا بالصراخ والتعبير عن الإعجاب بالطفل
الرضيع. قرصات خفيفة لذقنه اللحمية المدببة وأسماء غريبة
تخترعناها لمناداته تتبعا زفرات خفة وبهجة.

أبدو مندهشاً لأن هذا النزل الخاص لا يُشبه في شيء ما كنتُ
أتوقعه قبل مجيئي إليه. كنتُ أحسب أننا سنصل الى مكان مشبوه
وخرب، وأجد أنه، على العكس من ذلك، مكان نظيف وصحيّ ويدعو
الى الارتياح. انه مناخ الريف العذب بكل دفته.

وبينما انهمكت كثير باستكشاف مكان إقامتها الجديد، اعمد

الى التحدّث قليلاً الى احدى الانستين.

- هل سبق لك أن قابلتِ سعادته؟ أسألكها.

- لا، لقد جاء سكرتيره لاستئجار الغرف. ولكن بالله عليك بلّغ
سعادة القنصل كم نحن فخورتان، أختي أورتانس وأنا، لاختياره
دارتنا. انه شرف كبير...

الخ... الخ...

- الا تحفظين النشيد الوطني الالاباني؟ أقول.

- لا، أبداً.

- إذا ينبغي أن تحفظي كلماته وموسيقاه جيّداً. لأن سعادته
يريد أن تنشديه كلّ صباح على مسامع ابنه عندما يستيقظ.
وأغادرها عائداً الى باريس وقد ملأتها الحماسة بهجةً وارتباكاً.

الفصل الخامس عشر

في طريق عودتي أتوقف لبعض الوقت في سان كلوا لكي أبدل
ملابسي. ولا تخفي الوالدة دهشتها حين تراني مُقبلاً في زي السائق
الذي أرثديه.

- أنطوان، يا صغيري، تقول بـزفرة، أحياناً أشعر بأنك تتصرف
بغربة!
فأقبلها.

- إنها دعابة، مجرد دعابة يا أمي.
وأرمقها بحنان. تبدو وكأنها تقدمت في السن، فيليس الحبيبة.
في الآونة الأخيرة. لقد ازدادت التجاعيد حول عينيها وصدغيها.
وغزا الشيب شعرها. نظراتها حزينة بعض الشيء. فينقبض لمرآما
صدري. وأقول في سري ان العمر يتقدم بها في غمرة المخاوف
والقلق. لقد أمضت حياتها لا يفارقها القلق لمصير ابنها. وذات يوم
ستفارق هذه الدنيا وستلازمني مشاعر الندم لأنني لم أصرف
مزيداً من الوقت بقربها.

- أنا أحبك كثيراً يا أمي.

فتبدو مغتبطةً وتبتسم. وتداعبُ خدي بطرف أصابعها دون أن تُجيب.

- اسمعي يا أمّاه، أعلم جيّداً أنني غالباً ما أغدقُ عليك بالوعود وأنني لا أفي بها كثيراً، ولكن الآن، انه وعد قاطع. فما إن أنهي القضية التي اتولاها اليوم سنذهبُ سوياً لقضاء خمسة عشر يوماً في الريف.

طبعاً هي لا تصدق حرفاً واحداً ممّا أقول، لكنّها تتخلّرُ الي كأنها تصدّق فعلاً.

- بالطبع، يا أنطوان.

- لادي إجازات لا تُحصى. فلو انني اطالب اليوم بكلّ ما استحقّ لي من اجازات فسيكون بإمكانني أن أحظى بتقاعد مبكراً سنقصد ركناً ما، غير بعيد. وبأية حال لن تعيقنا المسافة مهما بلغت. ناحية فيكام، اتحبّين ذلك؟ وسنعثّر على فزل غير مجهّز بخط هاتفي وسناكل الكركند، كثيراً من الكركند. وبإمكانك أن توضّبي الحقائب منذ الآن، إنه وعدٌ قاطع لا رجوع عنه.



ارتدي ملابس مدنية وأنظرُ الى مُنبّه اليد. انها تقاربُ التاسعة.

- ألن تتناول العشاء في المنزل؟ تسال الأمّ الرؤوم قلقةً.

- بلى، ولكن فيما بعد. إحفظي لي طبقاً ما، وسألتهم فور عودتي.

- سأشاهدُ التلفزيون، تقول هامسةً.

ما يعني، في لغة فيليس، انها ستتتظرنى حتى نهاية البرامج
وريمًا بعد انتهاء البرامج بوقتٍ طويل. كم يلدُ لها أن تراني مُنغمساً
في تناول الأطباق الشهية التي تحضرها لي. تسكُب لي الشراب، أو
تناولني الملح أو الخردل حالما تشمر أنني احتاج الملح أو الخردل...

- الست متوَعكة، يا أمي؟

- لا، على الاطلاق. ما الذي يدعوك الى هذا الظنّ، هل يبدو عليّ
التوَعك؟

- ريمًا بعض العياء.

- ذلك أن مدبّرة المنزل لم تأتِ اليوم. تخيّل، لقد وضعت ابنتها
مولوداً، ولكن المسكينة كانت قد تناولت أثناء الحمل جرعات من
«التاليدوميد»...

وترسم فيليس إشارة الصليب على وجهها، فأدرك أنّ السيدة
سوغرونيو المسكينة، التي يجتمع شمل الويلات في عقر دارها، قد
أصبحت الآن جدّة لمولود يُشبه أسد البحر.



هدوء مُسَلِّح (انه الشيء الوحيد المسلِّح في شقّتهم) يسودُ
الاجواء عند آل بيروبييه. تأتي الخادمة وتفتح الباب وتبلغني أن
السيد في داره بالفعل.

لقد رُفعت الانقااض. وسدّت ثغرة الحائط بقطعة سياج مُشبَّك،
لكي يُتاح لجارهم في الطبقة العلوية الذي قد يقع دون أن يسمع وقع

سقطته، أن يبقى حيث هو؛ وكذلك الأمر أصلح من الأضرار ما يمكن إصلاحه.

برت تراقب شاشة التلفزيون متهاكّة فوق إحدى الكنبات. ويقرّبها جلس صديقها المزيّن. وخلفها جلس يبرو على كرسيّ كأنّه راكب باص. ويُسمع بوضوح صوت حمّالات الجوارب المطاطي الخافت لفرط ما تستسلم البدينة لداعبات المزيّن الموسيقية البارعة. على الشاشة تظهر صورة السيد بيار صبّاغ بشحمه ولحمع على أنّه رجل القرن العشرين. يطرح السيّد صبّاغ سؤالاً غريباً: «ماذا كان لون حصان هنري الرابع؟». ويستثير السؤال جواً من التشويق يستلبُ المشاهد فلم يكلف أحدهم نفسه مشقّة الترحيب بي أو تحيتي. فأجلس بقرب البدين. وتأتي الخادمة وتجلس فوق ركبتيّ لأنني استوليت على كرسيّها. انها لحظات حبس الأنفاس. مباراة العام: السيد بالاندار في مواجهة فتیان بلناف (متحدّين). يقول مندوب بلناف إن حصان هنري الرابع (ملك البويون كاب) كان مُرَقّطاً. أما السيّد بالاندار فيؤكّد من جهته، أن لونه كان أسود. صفر لكلا الفريقين! وتتواصل اللعبة.

يقرّر جلالته أخيراً أن يمدّ لي اصبعين لامباليين لمصافحتي.

- أيّ نسائم سعد أتت بك؟ يسألني بنبرة ملكيّة.

فأشدُّ على اصبعي النقانق خاصّة يده.

- أيمكنني التحدّث اليك لبعض الوقت؟

- في ختام البرنامج، يقولُ حاسماً. وبأية حال أنّه السؤال الأخير.

.. سؤال في الأدب 'يوضح السيد صباغ . (إنه يوم الخميس، يوم صباغ الطويل).

يسحب بطاقة من علبة طويلة وفجأة يتهاك وجهه مثل الهالة التي تغمر أرجاء صالة السينما.

.. من كتب رواية «Du Mouron à se faire»^(٥)، يسأل متخذاً على جاري عاداته سحنته الهازئة التي تثير حماس أربعة ملايين وخمسمئة وستة وعشرين ألف متفرج.

يجيب السيد بالانذار أنه شكسبير، أما مندوب بلذاف فيقول إنه سان أنطونين، فيفوز طبعاً.

.. لقد نسيْتُ تماماً أنك مؤلفها، يعترف بيروبيه.

.. ذلك أن ثقافتك الكلاسيكية لا تعوزها الثغرات!

كان نصر فريق بلذاف ساحقاً، وأقصى السيد بالانذار عن المباراة، ومع ذلك يُكافأ بجائزة صغيرة ويحظى بمصافحة الأنسة لوساج، وثمة من وجد نفسه قتيلاً قبل أن يحظى بأقل من ذلك! وأهم بتحية السيدة الحوت لكنها توارت في الاثناء. ثم عادت لتتهاك فوق الكنبة. يواصل المزيّن مداعبتها فتصدحُ البدينة الشمطاء بأنين يشبه دفق مساقط المياه.

.. انها فترات الاستراحة بين برنامجين! أوشوش في أذن البدين مشيراً الى بعلته.

(*) عبارة تعني: «تلقّ» (عامية فرنسية). (م. ع).

فيهمس في أذني.

- لا أستطيع الاعتراض. فنحن في فترة خصام. ثم يقول مُشيراً
الى صديقه الحلاق: «تخيل أن هذا المعنوه قد طلق زوجته. ومن
الآن فصاعداً سيمتّعنا بمؤانسته كلّ مساء.

افهم من هذه الصيغة المفردة جمعاً يطفح به الكيل.

وأستدرجه الى الحانة في الأسفل.



وما إن يستقرّ على متن الكرسي المحاذي للبار يشعر الرجل
الهائل أنه في حالة أفضل ويستعيد صفاء سريره.

- أوتعلم، يقول، منذ شجار الباردة وأنا لا أشعر بالراحة. إن
يكدّرني كثيراً أن أفقد نمري. وفي آخر الأمر سأحصل له على
الجنسية الفرنسية. أما كلبي السان برنار فهو نزيل عيادة
البيطري. وسوف تراه غداً مكسواً بالجبس، وكما أصبحت حاله
ستظن أنه ليس هو ما تراه بل تمثاله.

- سنضعه فوق منصّة الى جانب بينو، قلت مُمازحاً.

- على ذكر بينو، لقد عزّجت عليه هذا العصر.

- كيف حاله؟

- يُعاني الحكّة كالعادة. ويكاد الشرطي الذي يحرس بابه لا
يفعل شيئاً سوى حكّ مختلف أنحاء جسمه.

- والآن، التقرير أقول.

يكرع بيروبييه كأس البوجولييه جرعة واحدة.

- لا تستبق الأمور، يقول معترضاً.

ويمسح شفتيه بضربة كمّ عنيفة ويشير الى النادل بأن يسكب له كأساً أخرى.

- حسناً، هاك ما لديّ. نتائج المراقبة، لا شيء يستحق الذكر لأن القنصلية لم تفتح أبوابها طيلة النهار ولم يات أحد إليها. لقد أفسدت عيني لفرط ما شخصتا في واجهة السفارة من وراء نافذة صاحبك الأستاذ العجوز ونظارته الريدّة.

- أما من جديد بشأن مورييوز؟

- لا شعيم خبر. وحارسة المبنى لم تره أيضاً.

- باختصار، ليس لديك ما تقوله لي؟

يتخذ البدين سحنة سلطان الغموض ويقرص ما بين فخذه بطرف الإبهام والسبابة.

- مَنْ يدري...

- لا تتخذ سحنة من يعلم ويمتنع عن القول، أيها البدين؛ ليس هذا طرائك، أقول بحزم. إذا كان لديك ما تغرغ به فأبصقه الآن فوراً ولا تلعب معي دور هاري باور.

يستاء لكلامي هذا.

- هلاً أقلعت عن معاملتي كسرولة متسخة، يقول البدين المستاء. والجديد الذي سأطلعك عليه قد توصلت الى معرفته بفضل مواهبى الخاصة.

يكرع كأسه الثانية. وأتمالك نفسي عن تقريعه. فبالصمت وحده
انتصر عليه. فأتناول صحيفة كانت يمتناول يدي فوق البار
وأستغرق في قراءة مقالة حول مباراة موناكو - نيس. فينتزعها
السيد الحرون بقوة من يدي.

- لا داعي للمناكفة يا سان - أ، فأنا لستُ في الخدمة الآن.
تأتي وتنتزعني من أوقات الراحة أمام التلفزيون. وأترك زوجتي
الموقرة تحت وطأة مداعبات المزيّن لاتبك وكل ما تفعله هو أنك تقرأ
صحيفة «الإيكيب» أمام عيني! هذا غير لائق.

تترقق دموع المهانة في عينيه اللواتين بالوان مجاري
السّليخ.

فأحضنه مداعباً.

- هيا يا بيرو، دعك من العواطف. أخبرني...

إنه لينّ العريكة، هذا البيروبيه. لا يقاوم ضعف العواطف
التيبة، فينشق بقوة ويصرّح:

- حين وجدت أن لا شيء يستحقّ المراقبة وشعرتُ بالضجر،
رحتُ أبحث وأنقب في أرجاء بيت موربيون.

- وما هي نتائج تنقيبك يا عزيزي؟

- هيذي هاك، هاك هيذي! أنشد وهو يُفتش جيوبه.

ثم يطلّعني بجراب تبغ صغير تفوح منه رائحة ميناء
الصيادين في فصل المطر، ويفتحه. يحتوي الجراب على صورة
إبلحية لامرأة ورجل يلعبان لعبة المصور (تلعب المرأة دور آلة

(التصوير)، ومسواك مشرّم، وحبّة بندق وقطعة نقدية من فئة الخمسين فرنكاً قديماً، وقطعة نقدية من فئة الخمسين سنتيماً جديداً، نثرّة من جبنة غروبير ورزّ لفتحة البنطال الامامية. ويواصل تنقيبه وسط حفنة التبغ، ثم ترتسم على وجهه معالم الانتصار ويُطالعني بقطعة حديد صغيرة.

أتعرّف فيها الى رصاصة مسحونة.

— Qu'é Zacco ؟ أسأله بالإيطالية.

— أنت ترى جيداً، يا صاحبي: انها رصاصة من عيار ١١, ٣٧. وجدتتها مغروزة في السقف. وحاولتُ أن أحدّد مصدرها وأفلحت في ذلك. لقد أطلقت هذه الرصاصة من جهة القنصلية وقبل أن تستقرّ في السقف انتزعت نثرّة من إطار النافذة. ولا بدّ أن النافذة كانت مفتوحة لأن زجاجها لم يُكسر. وقد تكون هذه الرصاصة قد اخترقت صاحبك الأستاذ قبل أن تستقر في السقف. ولكنّ الحق يقال أعتقد انه احتمال بعيد، لأن الرصاصة قد انحرفت عن هدفها قبل أن تصل اليه بعد ارتطامها بإطار النافذة.

رحت أقلب الرصاصة في راحة يدي.

— مسألة موت أو حياة، قال موربيون، أليس كذلك؟

— يَسْ سِير^(٥٥).

(*) لا بدّ أن المقصود Che Casa الإيطالية، وتعني، كما لا يخفى على سان أنطونين: «ما هذا؟».

(**) أجل يا سيدي، بالانكليزية في النصّ.

.. الآن بدأت انهم . كان واقفاً وراء النافذة يُراقب القنصلية
مُستخدماً منظاره . فاكتشف جماعة القنصلية فعلته وارادوا
التخلص منه . فإخطاه القناص وهرع مورييون يُريد إبلاغي بأي
طريقة...

- لو أنّ الامر يعود لي، يؤكد البدين، لبادرت الى الاتصال
ببوليس النجدة.

- إن مورييون من طراز أولئك الذين لا يشبهون الاناس
العاديين في ردود فعلهم . لذلك حاول الاتصال بي . وفي الاثناء صعد
اليه جماعة القنصلية للتثبت من موته .

- ووجدوا أنه حيّ يُرزق!

- أجل . وعندئذ تخلوا عن فكرة قتله على الفور واقتادوه معهم .
اراد مورييون أن يترك أثراً ما استدلّ به الى الواقعة . ولما وجد نفسه
عاجزاً عن التصرف بسرعة ، انتزع رقاص ساعته .
- لماذا؟

- الساعة كانت نقطة البداية . فقد أدرك أن أحداً ما تسلّل الى
شقته أثناء غيابه عندما انتبه الى أن الساعة ليست متوقفة برغم
المدة التي أمضاها في المستشفى . وهكذا خطر له انه بانتزاع
الرقاص يُعلمني بأن الامور ليست على ما يرام...

اصفن لبعض الوقت . يبدو لي هذا التفسيرُ صائباً . ذلك اني لم
افهم جيداً مسألة انتزاع رقاص الساعة من قبل ، أما الآن فأنا
واثق من أنني امسكتُ بطرف الخيط .

- ولماذا اقتادوه معهم؟ يسأل البدين .

- لأن اقتياد رجل حيّ أسهل من نقل جثة.
- ما كان عليهم إلّا أن يقتلوا الرجل ويتركوا الجثة في مكانها.
- لا بدّ أن خطّتهم كانت مختلفة. وبأية حال، أدرك الآن حقيقة ما جرى.

- أخبرني، هيّا، يقولُ السّمعين متوسّلاً.
- عندما وصلوا اليه كان مورييون يتحدّث عبر الهاتف، وظنّوا أنّه ربّما أخطر الشرطة بالأمر. فاحتاروا في أمرهم، لأنّ بقاءه حيّاً يعني أنّه سيصبح شاهد إثباتٍ ضدّهم، أمّا موته فيعني أنّ جثته ستصبح إثباتاً لصحة أقواله. وكان الحلّ الوحيد أمامهم أن يقتادوه معهم بسرعة.

ثمّ يستغرقني التفكير. هل قُتل مورييون في ركن بعيد منعزل؟ إنه أمر مرجّح، لا بل أكيد، لأنّ المزاج ليس من طباع هؤلاء السادة. إذ تذهلني قدرتهم الهائلة على قتل أخيهم الإنسان. وكلّ الدلائل تشير إلى أن مكيدة خطيرة تُحكّ في هذه اللحظات بالذات. فالحصار يضيق ولا يتسع وقت هؤلاء السادة لأيّ تسويف أو مراوغة، ولذلك يتخلصون من كلّ العقبات برصاص مسدساتهم. إنهم يُخاطرون بكلّ شيء على غرار مترجّجي النخبة الذين يُقامرون بسلامة عظامهم لكسب عُشرٍ ثانيةٍ في هبوطهم المنحدرات.

- ومع ذلك أجدُ أن هذا التعاكس غريب بعض الشيء. يصرّح صاحبُ الاستدارة.

- أي تعاكس؟

- تعاكس المسارات عبر النافذتين! ففي المرّة الأولى يُطلق

الرصاص من منزل موربيون باتجاه القنصلية، وفي المرّة الثانية يطلق من القنصلية باتجاه بيت موربيون. انها كرة طاولة!
- بالفعل، أيها البدين. أو ما يُسمّى في بلاط صاحبة الجلالة اليصابات الثانية حفلة - ثقوب - الرصاص.

انظر الى الساعة. انها العاشرة ويضع دقائق!

- اتهمى صيد السمك على ضوء الصباح، أيها البدين؟

- صيد سرطان البحر؟

- وسمك القرش! إني أدعوك.

- متى؟

- على الفور!

يبدأ بالشكرى.

- لا أستطيع: لقد فقدت عدّة الصيد: فخلال عراكنا أمس قصّت بيرت جزمتي المطاط بالمقص.

- الصيد الذي أدعوك اليه يقتضي انتعال حذاء رياضة.

- إلى أين وجهتنا؟

- الى رويل ماليزون.

- عند نهر السين؟

- لا، يا عزيزي: عند المياه الاقليمية الالابانية.

يهز رأسه الضخم كراس عجل حتى كاد يتساقط النمش الذي يُغطي أنفه.

- ارفض رفضاً قاطعاً. مرّة واحدة تكفي! فما زلتُ أذكر، يا سان

أنطونيو مغامرة تلك الليلة، لا شكراً، بالفعل.

- معتان، أقولُ له. إذاً سأذهب بمفردي.

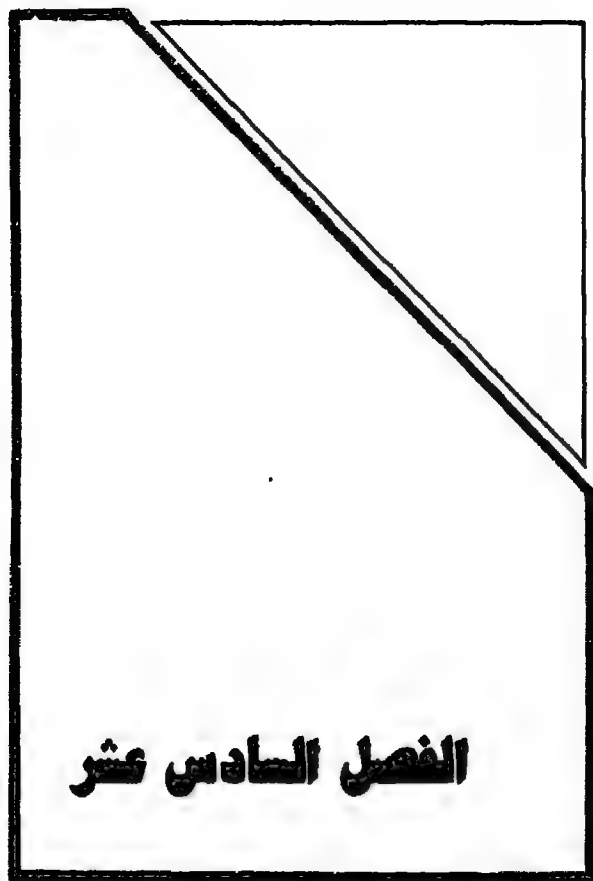
أرمني ورقة نقدية لبائع الشراب المخلل وأتجه نحو الباب بكبرياء.

- مهلاً، يقول المنتفخ معترضاً، لا تتسرع، ما أردتُ أن أقوله لك

هو...

إلا أنني أغلقت باب الحانة ورائي ورحتُ أسيرُ في اتجاه سيّارتي.

وما إن أردتُ المحركَ حتّى فتح الباب الآخر بحركة خاطفة ولم يلبث السمين أن تكّدس فوق المقعد بجانبي. ألم تقل أنت أن هذه المهمة تستوجب انتعال حذاء رياضة؟ يسأل السمين. ذلك اني، كما ترى بأنّ عينيّك، انتعل الآن حذاءً عادياً.



— ما الذي يدعوك الى طرق باب تاجر الكلاب في مثل هذه الساعة، يقول البديع مندهشاً. اتوبّ ان تشتري كلباً.
— دعك من الاسئلة يا آينشتاين.

نحن في نانتير عند متجر «الامبراطورة» لبيع الكلاب وصاحبه مفتش سابق في الشرطة لطالما كان شغوفاً بتربية الكلاب. تستقبلني جوقّة من الحيوانات النابحة. يُفتح الباب فيطالعني المفتش السابق كارلين مُرتدياً سترة الصيد ذات الازرار المزركشة وقد نقشت عليها جميعها رؤوس كلاب.

يُغمضُ كارلين عينيه السلوقيّتين (فهو من مقاطعة بروتانيه) ويصرخُ قائلاً:

— اهو حلم!

— بل علم، أجيبه بفصاحتي المعهودة.

عناق يليه الحوار المعتاد الذي يُستخلص منه أنّه على خير ما يُرام — لا بأس — وانت؟ شكراً. أمل ان تكون كذلك انت أيضاً. ويُدخلني الى مطبخ حيث يحتضر جروكسيح في سلّة مُسطحة جُعلت لهذا الغرض.

- اي رياح سَعْدِ ترمي بك في الجوار يا حضرة الكوميسير. أتبحث
عن كلب؟

- لا، أبحث عن كلبة.

- من أي نوع؟ فلديّ كلب الراعي وملطّي الحراسة وديرواس
بورديو.

- أهو ذاك الذي يُشبه أخاه كالتوام؟

تستهويه الدعابة وإن كانت لا تستحق ابتسامة صفراء.

- أما زِلْتَ تؤثر الدعابة والمزاح يا حضرة الكوميسير.

- تقصد أنني أصبحتُ مفرطاً فيها. إسمع يا كارلين، لا أبالي
كثيراً بالنوع، ما أريده هو كلبة في حالة هياج.

فتجّظ عيناه ويسأل ببلاهة:

- ماذا تقصد؟

- القصد واضح: أريد كلبة في حالة هياج، ولا بدّ أنك تملك
واحدة في تشكيلة الربيع هذه، أليس كذلك؟

- أجل، ولكن...

- إذأ، أيها الأبله، إنها كلبتي. واحذرك: ما أريده هو دابة في
حجم برت بيرورييه!

- لديّ مرادك. قِلطية حراسة مُغراء مُخططة في الرابعة من
عمرها!

- أحضرها.

- هل أنت جاد حقاً، أتريدُ شرعها؟

- إني أشتريها. وأرسل الفاتورة الى تخشيفية القيادة العليا، ذلك
أنها من جملة مصاريف الخدمة.
- لا بد أن ابتعاده عن السلك قد أنساه غرائب مزاجي فشعرتُ
بأنه يكاد يُصاب بالسكتة الدماغية.



- لقد قلت لي إننا سنذهب لصيد السمك، يقول البدين موضحاً.
والظاهر أننا على وشك القيام برحلة لصيد الطيور. ما اسم هذا
الكلب الجميل؟
- إنه يُدعى جولي، أقول.
- اسم غريب إذ يُطلق على كلب بمثل هذا الحجم.
- إنها كلبة.
- بأذنين كهاتين يصعبُ عليّ أن أصدّق أنها أنثى.
- أعتقد أن التدقيق في الأذنين لا يكفي لمعرفة جنس الحيوان.
انطلق في اتجاه المليزون. وأصل الى جوار المنزل بعد منتصف
الليل بدقائق.

- تشبث جيداً برسك الآنسة، أقولُ مخاطباً كتلة الشحم. لقد
أصبحت اللعبة بالغة الخطورة.

وبالفعل ما إن نصلُ الى سياج المنزل حتى يهرع الكلبان
المفترسان تسبقهما زمجرتهما المرعبة. أستخدم مفتاح سمس
الشهير وأفتح البوّابة. وتقضي اللعبة بأن ادخل الآنسة جولي الى
المكان (وبالانكليزية يُدعى المكان أيضاً) قبل أن تنطلق صفارة

الانذار في الداخل. ويُتمتم الهائل الذي شرحتُ له خطّتي مشيراً الى الكلبين.

- وماذا لو كان الكلبان لا يباليان بالإناث، أحسبُ أنها النهاية يا سان - أ.

- انتبه! أقول. سأفتح البوّابة وأستعد لدفع الأنسة جولي الى الداخل على الفور وإلاّ تشبّث المفترسان بأعقابنا.

وما أردتُه كان. يمسك المونسنيور بيرويه بالكلبة جيّداً وما إن افتح البوّابة حتى يدفعها البدين الى الداخل.

- دخلت ملكة الإغراء! يصرخُ مبتهجاً.

فلا يُطيل الكلبان الانتظار. وما هما يستقبلانها على أفضل وجه! ويروح الشّمَام يقبّعها ملحاحاً. ولا تعرفُ المسكينة كيف تواجه الذكريين. فتتقدم في حركة دائرية وتوزّع عضعضاتٍ خفيفة، ضربات خفيفة بقائمتيها الخلفيتين، ولكنّ الواضح أنها لا تبدي مقاومةً جادّة. فهي تتمنع احتشاماً. ويلكزني بيرو الذي يُراقب المشهد، بمرْفقه.

- إنها تتمنّع كما تفعل النساء. انظر الى هذه المكّارة الصغيرة البتي تتحرّق شوقاً ومع ذلك تبدي لهما عدم الاكتراث قبل أن تنالهما على التوالي.

ننتظر بعض الوقت. فلا تلبث الكلاب الثلاثة أن تنتحي زاوية ظليلة من الحديقة. وحين وقت العمل.

نسيرُ منحنيين فوق عشب الحديقة لكي نكتم وقع أقدامنا. وكه

كُنْتُ مُحَقِّقاً حِينَ لَاحَظْتُ أَنَّ الْإِضَاءَةَ الَّتِي تَنِيرُ الْمَنْزَلَ لَا تَتَبَدَّلُ لَيْلاً
نَهَاراً.

فَضَوُّ الْكَوْكَبِ اللَّيْلِيِّ^(*) الشَّاحِبُ لَا يُبَدِّلُ شَيْئاً مِنْ مَنْظَرِ بَيْتِ
الْقَنْصَلِ الْكُتَيْبِ.

يَسْطَعُ ضَوْءٌ وَحِيدٌ خَلَّلَ نَافِذَةً وَحِيدَةً. أَنَّهَا النَّافِذَةُ الَّتِي تَقِفُ
خَلْفَهَا أحياناً الْمَرْأَةُ الشَّقْرَاءُ.

أَحْسَبُ أَنَّهَا تَعَانِي أَرْقاً مَزْمَناً.

أَشِيرُ إِلَى الْبَدِينِ بِأَنْ يَمْكُثَ فِي أَنْتِظَارِي وَأَدُورُ دَوْرَةً كَامِلَةً حَوْلَ
الْمَنْزَلِ. لَا أَجِدُ مَا يَثِيرُ الرِّيْبَةَ.

— هِيَ تَعَالَى، آتِيهَا الشَّرْطِيُّ الْمَجِيدَ.

يَتَبَعْنِي. الْإِحْظَ بَاباً صَغِيراً لَا يَدْ أُنْهُ يُسْتَخْدَمُ لِإِدْخَالِ حَمُولَاتِ
الْفَحْمِ. الْبَابُ مَقْفَلٌ بِالْمِفْتَاحِ. وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَيِّداً كَيْفَ أُعَالِجُ
الْأَقْفَالِ بِخَفَةِ وَبِرَاعَةٍ!

نَهَيْتُ نِصْفَ دَرِيزَةٍ مِنَ الدَّرَجَاتِ. يُشْعِغُ مَوْقِدَ الْمَدْفَأَةِ الْعَمَلِاقِ
شُعَاعاً مِنَ الْأَضْوَاءِ الْحُمْرَاءِ الْغَائِمَةِ فِي أَرْجَاءِ الْقُبُورِ. إِلَّا أَنَّ الْإِنَارَةَ
الَّتِي يَوْقُرُهَا لَيْسَتْ كَافِيَةً. فَأَشْعَلُ مَصْبَاحَ الْجَيْبِ الْكَهْرِبَائِيِّ. إِنَّ
مِثْلَ هَذِهِ الْأَمْكَنَةِ لَا تَكُونُ مِبْهَجَةً فِي الْعَادَةِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْمَكَانَ
بِالذَّاتِ يُوحِي بِالْفَجِيعَةِ.

(*) يَنْبَغِي أَنْ نَسْتَعِينْ، بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ، بِلُغَةِ الشُّعْرَاءِ الْكَبِيرِ لِأَنَّ مِثْلَ هَذِهِ
الِاسْتِعَارَةِ مَجْلِبَةٌ لِلرَّاحَةِ. وَهِيَ أَنْذَاءُ، إِذْ أَفْعَلُ، تَتَنَابَنِي تَشْنِجَاتُ الْكَاتِبِ وَيَقْتُلْنِي
وَجَعَ عَقَبِي. (سَانْ أَنْطُونِيو).

-
- أتشتم الزوايا مثل كلب صيد.
- ما الذي تبحث عنه؟ يسأل بيرو.
- وما ادراني أنا!
- فيهز كتفيه.
- إنه صيد في الظلام الدامس، يقول بحصافة.
- ثم يتوقف ويطلق صرخة الم مكبوتة.
- ماذا حدث؟
- لقد انغرز شيء ما في قدمي، لقد أضعتُ فردة حداثي في الحديقة.
- اصوبُ نور الصباح الى قدميه. يرتدي جوربين سوداوين. ينزع أحدهما والاحظ انه مليء بالثقوب، ولكن يصعبُ على الناظر أن يرى الثقوب حين يرتديها. شيء ما قد غرز في كعب قدمه كأنه قطعة معدن لامع. فينتزعه.
- مسمار مثبت؟ أقول سائلاً.
- ليس تماماً، يجيب بيروبييه وقد أمسك بزُيافةٍ مستعارة بين إصبعيه.
- فتبدر مني آهة تعجبٍ مكتومة حتى يُخيلُ لسامعها انها رسبت في فحص السماع.
- إنه زُيافة موربيون!
- هل انت واثق مما تقول!
- لم أرى أحداً سواه يرتدي يافة سيألوويد مستعارة. انت تدرك
-

الآن يا بىرو انتني كذبتُ عليك حين قلت لك انتني اجهل تماماً عما
ابحث. أنا ابحت عن موربيون المسكين. وكنتُ ارتابُ بأن اولئك
الاولاد قد اقتادوه الى هنا!

- للإيقاع به في مكيدة الأب فرنسوا؟

- بالطبع.

- إذا لا بد أن تكون جثته في الجوار!

وينبدا البحث بانفعال محموم. وفي كل مرة اجدني مُرغماً على
استجداء الصمت من البدين الذي يتحرك بخفة بولدوز من
ترسانة الاشغال العامة.

نغرز قضباناً في أكوام الفحم، ونقلب الحاجيات العتيقة وقطع
الغيار المكسدة في القبو ونرج البراميل: عبقاً؟ آسف، الخطأ بسبب
البراميل، كنتُ اقصد: عبقاً).

- النتيجة: صفر اليدين، يقول القرد الشجاع الذي يرافقني وقد
تبطلت ثيابه بفائض من العرق البروليتاري. إذا كانوا قد قتلوا
استاذك بالفعل فلا بد أنهم دفنوه في الحديقة؛ وإلا...

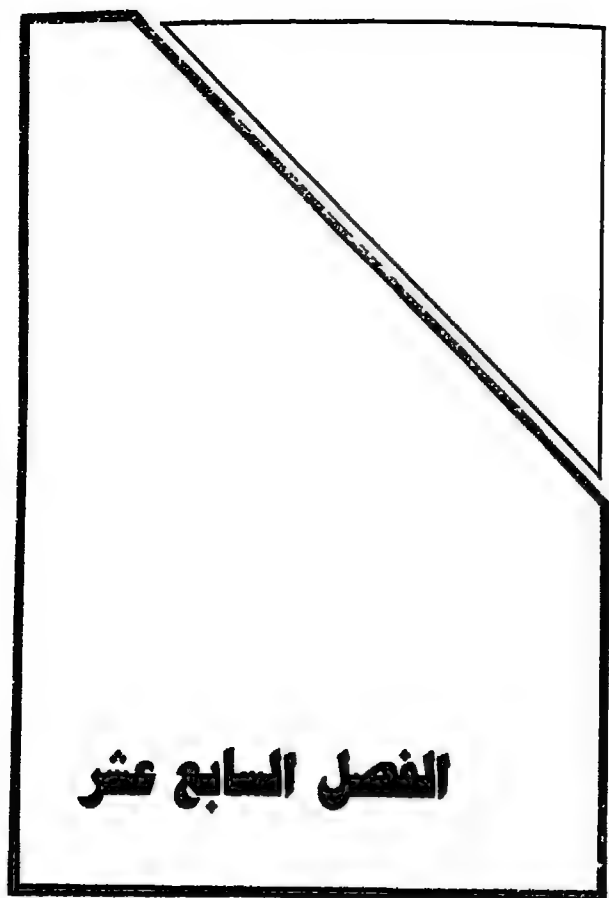
ويُشير الى موقد المدفأة.

فادلي بدلوي. اعشقُ أن افعل. احسبُ أنني اتفوق على الجميع
في إصراري على الإدلاء بدلوي.

- ماذا نفعل الآن؟ يقول الكسندر - بنوا قللاً.

وبدل أن اجيب ادلفُ الى حجرة ضيقة ملحقة بالقبو. إنها حجرة
غسيل وفيها حوض حجري، ومضخة ماء واسلاك ممدودة بين
الجران وقد كساها الصدا.

انظرُ داخل الحوض. اجدهُ مليئاً بالطحين، او... اتمسسه
بأصابعي: إنه كلس! كلس! منطقة ألبين، لا بل: أفضل أنواعه.
امسك قضيباً وانقب بواسطته داخل الحوض، يرتطم بكثرة
جامدة. وعندئذ أرفع الكلس بواسطة معرقة تنبأت بضرورة وجودها
هناك منذ أن شرعتُ بكتابة روايتي هذه. وإذا بي اكتشفُ بعد وقتٍ
جئتُ متأكلة حتى العظام بفعل الكلس.
- إذا، أترى الآن، يتمم رائد الموضوعية، بيري، لقد عثرت عليه
أخيراً، استاذك الكريم!



الفصل السابع عشر

إن مثل هذه الأدلة الثبوتية من شأنها أن تسبب الكثير من المتاعب لقنصل الالبانيا.

- أنستدعي قوة للمساندة؟ يسأل البدين. إذ يتوجّب عليّ أن اعلمك بأنني لا أحمل سلاحاً. لقد جئتُ خالي الوفاض نظيف اليدين.

لا أصبحون ذهولي إلا بعد وقت. وأفكر: إن أي محاولة من قبلنا نحن الإثنين فقط هي محض جنون وقد تؤدي بكلّ جهودنا. ثم أن المستجذات التي طرات على القضية تستدعي مراجعة الرئيس.

- لنذهب! أقولُ بلهجة أمر: الأمر الذي يستجيبُ لرغبات رفيقي المقدام.

أعيد الكلس الى الحوض وننسلل عاندين من حيث جئنا، لم توقظ زيارتنا أحداً. الهدوء يعمّ المكان. وقد أطفئ النور في غرفة المرأة الشقراء.

- والكلبة؟ يسأل بيرو فور وصولنا الى الباب الخارجي.

- سنستعيدها فيما بعد، دَعُها تتألّ ليلتها الحمراء.

*

* *

في اليوم التالي، الذي يُصادفُ تماماً غداة عشية البارحة، يُعقد اجتماع قمة في مكتب الأصلع. ويشارك فيه حسب ترتيب الأهمية: هو وأنا.

أقدم له عرضاً مفصلاً للأحداث حسب تسلسلها الزمني وفي اتجاه دورة عقارب الساعة.

لقد أصغى وأدرك واتضحت صورة الوضع في ذهنه.

- من المؤكد، يقول مُستنتجاً، أننا حيال عصابة حقيقية. ولا أفهم جيداً كيف لأحد أعضاء السلك الدبلوماسي أن يترأس مثل هذه الجماعة!

- الوقائع لا تكذب، أقول مقاطعاً. فالجرائم تليها الجرائم... يقاطعني.

- لقد قابلت الطبيب الشرعي. لقد كانت وفاة ياباكسا دانلاي وفاة طبيعية، ولم يعثر على أي أثر للسم. لقد أصيبت بنوبة قلبية ولم يصمد قلبها.

- غير معقول، أقول باستياء.

- أنت تعرف جيداً طبيينا شرعي: فهو لا يأخذ الأمور بخفة، وإذا أكد أن الوفاة طبيعية فهذا يعني أن الوفاة طبيعية.

- ولكن يجب أن تعترف أيها الرئيس أنها مصادفة مذهلة. فالمستغرب أن تفارق الفتاة الحياة بعد ساعاتٍ من محاولة قتلها دون أن يثير الأمر لدينا أية شكوك، اليس كذلك؟

- قد تكون الصدمة، والانفعال الذي سببته، قد أفضيا الى الوفاة؟

- إذا كان هذا التفسير يُرضيك، فهو يُرضيني أنا أيضاً، أقول بسذاجة زائفة لا تخفى على الأعمى الأصم الأبكم.

- والآن بشأن خرافتنا الالابانيين، يقول المتكوف بنبرة ثغاء. أعتقد يا سان أنطونيو أنه ينبغي أن نتجنب أي ضربة حاسمة في الوقت الحاضر. ولا شك أنك محق حين تقول إن هؤلاء الأوغاد يدبرون عملية خطيرة، ولذلك فإن أي عملية متسّعة قد تؤدي الى نتائج سلبية. فلنحكم شدّ حبال الشبكة...

انه يهذي! هوذا يعيد اختراع خيوط الشبكة، العبقري برنار باليسي. فالشبكة التي يحرص على إحكام خيوطها قد لا تصطاد إلا قبض الرياح، ولن تصطادها إلا إذا كانت صغيرة الحجم.

- سأعمل على أن توضع القنصلية ويبيت القنصل تحت المراقبة المشدّدة. أما أنت، فامكث في موقعك، متاهباً. ستقل سعادته الى حفل استقبال، أليس كذلك؟

- بالضبط. حفل استقبال رسمي، قال السكرتير.

- سأستعلم عن الأمر، يقول الحيزبون، إذ ينبغي أن نراقب كلّ تحركات القنصل. من الآن فصاعداً، علينا بالحيلة والحذر...

أرفع إصبعي مثل تلميذ يستأذن بالمغادرة.

- نعم؟ قال الكهل.

- أعتقد أيها الرئيس، أن الحلّ الأفضل هو اعتقال السكرتير وحرسه والمرأة الشقراء وربما القنصل أيضاً. إذ يسهل علينا الآن أن نجد مبرراً لمثل هذه الخطوة بعد أن عثرنا على جثة موربيون في قبو المنزل!

يضرب السيد الاصلع - العجيب بقبضته على الطاولة.
- لننفذ ما امرتُ به. ومرةً أخرى أقول لك إن التحقيق في
الأساطير الدبلوماسية يتطلب مقداراً أكبر من... الدبلوماسية.
- ذلك أنك ترغب في مراعاة دبلوماسيين لا يتوانون عن قتل
أساتذة شرفاء ثم يذبيون جثثهم بالكس.
فينهض.

- أرجو العذرة يا سان أنطونيو، لديّ موعد.
كنتُ أودّ فعلاً أن أركل قفاه بحذائي عيار ٤٢، ولكنني أعلم جيداً
أن مثل هذا التصرف لا يليقُ بأخلاقية السلك.
وفي مثل هذه الحال الأجدر بي أن أخرج الى الهواء الطلق
وأستنشق هواء المجاري الحزيف.
فأذهب.



يمضي النهار في دعةٍ وسكينة. وأذهب لزيارة بينو وأحك له: ساقه
اليمنى وعنقه وخذه الأيسر وإليته اليسرى وأذنه اليمنى وأنفه
ومؤخرته وقذله وجفنيه. إنَّ المتباكي العزيز يُكابِدُ آلامه بصبر.
يتلقّى عنايةً مميّزة ويلعب دور النجم.

أبدلُ كلَّ ما في وسعي لأطلع به بشيءٍ من المواردية على خبر وفاة
سكرتيرته السابقة، إلّا أن بينوش يُجيدُ تلقّي الأنباء السيئة إذا
كانت لا تعنيه مباشرة.

- ياباكسا المسكين، يقولُ كنايةً عن محاولة في تأبينها، لقد كانت فتاة لطيفة ولا تقترب أخطاء في الطباعة.

- هل كانت تشكو من مرض في القلب حين عملت في مكتبك؟
يفكر قليلاً.

- لا أعتقد. وإن كانت... بلى، مهلاً، أذكر أنها ذات مساء وفيما كانت تهَمّ بمغادرة المكتب شهدت حادثاً ما وكاد أن يُغمر عليها.
وكان عليّ أن أنقلها الى أقرب صيدلية حيث أجريت لها...
- مراسم الدفن الأخيرة؟

- لا، عملية انعاش بواسطة مصل مُعيّن. لاحظيا سان انطونيو
أن العدد الأكبر من النساء يُغمر عليهن حين يشهدن حادثاً ما...
اغادر الجريح العزيز بعد أن قطعُ له وعداً بأن أعود لزيارته
قريباً بغية إجراء عملية حَكْ شامل لبدنه الذي يستبدّ به الاكلان.



وقبل أن أعود الى «وظيفتي الجديدة»، نتبادل بيروبيه وأنا
أطراف هذا الحديث المُتَحضر.

- إسمع آيها البدين، هذه الليلة أقامر بمستقبلي المهني كُلّه،
أقول له. إن ربحْتُ الجائزة، لا بأس، وإلا فستجدني غداً هائماً
أبحث عن وظيفة حارس ليلي في أحد القطبين حيث يدوم الليلُ ستة
أشهر. لذلك كل اتكالي على صداقتك، وجرأتك الدانتونية^(*) وعلى

(*) نسبة الى دانتون، أحد أبرز وجوه الثورة الفرنسية. (م. ع).

مزاياك الجوهريّة (وإن كانت مليئة بالثغرات) كشرطي، وعلى حدسك
وحسن المبادرة لديك وعلى قوّتك ...

فيشيرُ بيده مُقاطعاً وناثراً في الأرجاء رائحة الثوم التي تنبعث
منه .

- داعب الكلب فلا تجني سوى القمل! يقول الغول. هيا، افصح
عمّا تريد مباشرة.

- يجب أن أقلّ القنصل هذا المساء الى حفل استقبال.

- وهذا يعني؟

- أثناء غيابك ستعتمد الى التسلل بصورة غير رسمية الى منزله
في رويل المليون.

- مرّة أخرى؟

- ولكن هذه المرّة سنتنقّب في أرجائها شبراً شبراً، وستلقي
القبض على سحنة الغوريلا المقيم هناك وعلى السكرتير أيضاً.

- أنقول انه ينبغي أن اتسلل بصفة غير رسمية؟

- هذا يعني دون مذكرة اعتقال ودون أن تفصح عن صفتك
كشرطي، أفهمت؟

- وتريدني أن أعتقل كلّ هؤلاء بمفردي؟

- أنت المفتش الأوّل. اصطحب بعض الرجال. إقرع. واعتقل
المُخاط الذي سيفتح لك الباب. ثمّ تابع طريقك الى داخل المنزل
واعتقل الجميع...

- وبعد ذلك؟

- بدل أن تقتاد مُعتقلين الى منتدى السجناء، اذهب بهم الى

منزلي في سان كلو حيث تحتجزهم وتراقبهم الى حين عودتي. ولكن
 حذارِ فانت تعلم جيداً أنهم أبرع من استخدم الأسلحة النارية.
 - أبرع أم لا، فبأية حال ليس هؤلاء، من سينالون من بيروبييه.
 - إذأ، نفذ ما أقوله لك أيها الفتى!
 - وماذا لو اندلع الضريط^(*)؟ يسأل الكركدن قلقاً، هل سأتحمل
 المسؤولية وحدي؟
 - لا، ساكون الى جانبك.
 فيقول متفاخراً.
 - سيُصار الى تنفيذ رغباتك كأنها أوامرياً مونسنيورا
 فاطمنن وأهرع في اتجاه الضاحية الغربية.



يستقبلني الكلبان الضخمان بزمجرة وثقافز حين أقرع الباب.
 أحاول أن أتبين ما حل بالآنسة جولي المتوارية عن الأنظار.
 والأرجح أن الغوريلا قد رمى بها الى الشارع حيث تنتمي. وليس
 من المستغرب على الإطلاق أن تضع فيما بعد جراًء ليست من
 فصيلة قلطية الحراسة على الإطلاق. وعندئذ سيبدأ الشجار
 الحقيقي بين أصحاب النسب واللقطاء.
 جاء العتيعت المتضخم وفتح الباب مهدئاً من روع الكلبين.
 فأبادره شاكراً بتحية عسكرية.

(*) يريد: ماذا لو حدث إطلاق نار. (م. ع.)

يهز رأسه بجفاء. انه بلطف دبٌ قُطبي آيها الفتيان.

- عليك بتجهيز سَيَّارة صاحب السعادة، يأمرني، ان الغبار يكسوها...

فأهرع اليها. أجدُ السَيَّارة مُرمَّدة مثل أهل الجنّانة. فعندما يقود المرء هذا النوع من السيَّارات يحسب أنه مجرد سائق في مصلحة النقل المشتركة الحكومية. أقودها الى خارج المَرَّاب واركنها في الحديقة حيث أنصرف الى تلعيها بواسطة جلد جمل ميت.

تستعيد لمعانها. انها حقاً سَيَّارة بانخة لا تُضاهى. لستُ مَعَن يرغبون في التنزه كل يوم على متنها ولكن ينبغي الاقرار بأن مظهرها ساحر. وعندما أفرغ من تلعيها أجلس على مرقاة بابها الامامي ادخُن سيكارة. بين الأشجار تسمع زقزقة عصافير. وتبرز النجوم بارقة في سماء صافية. كم ينعم الكون بالسكينة حين يدعه البشرُ وشأنه! أفكر في جثة مورييون المسكين. فالحق يقال ان هذا الرجل الوديع قد لاقى مصيراً مفاجئاً. كنت أحسب أنه سيجر جرّ عمراً طويلاً من الأمراض بين قططه وكتبه. إلا أن سخرية القدر أبت إلا أن تكذب حساباني.

- هل أنت جاهز؟

انه صوت الغوريلا، يرمقُ سيكارتني بعين حمراء.

- أنا انتظر، أقولُ قاذفاً بعقب السيكارة نحو العشب المبلل.

أصعد الى السَيَّارة وأقودها بمحاذاة مصطبة المنزل. أشعر باختلاجات قلبي المتسارعة. أخيراً سأتمكن من رؤية وجه هذا القنصل اللعين! أترجل وأفتح الباب الخلفي ممسكاً بكسكيتي

منتصباً في حالة تأهب يعجز عنها نصب الشهداء التذكاري. يظهر طيفان على المصطبة. أحدهما هو صديقي وادونك هيثوردو، بكامل أناقته في بزة خضراء داكنة وأزارار مزركشة وكتفتين مذهبتين. أما الآخر فلم يكن سوى المرأة الشقراء التي لمحتها عبر النافذة.

استحوذت هذه الأخيرة على كل ما في من انتباه. ترتدي فستان سهرة أبيض مزيناً بوردة من الذهب الخالص. إنها جميلة وحزينة. إذ يبدو بوضوح من خلال المساحيق التي تغطي وجهها إن قسماتها مشدودة وبدا التفطن يحيط بعينيها المتعبتين. إنها امرأة في الثلاثين من عمرها تقريباً، شعرها أشقر يميل في مواضع إلى دكنة رمادية، عريضة الوركين بعض الشيء لحيمة الساقين (كما أحب النساء وإن لم يشاطرنني البعض ذاتقتي)، لكن مظهرها يوحي بفتنة مثيرة. تصعد إلى المقعد الخلفي وفيما تستقر في جلستها ترمقني بنظرة ذات مغزى وأعمق من بنر في منجم. يصعد هيثوردو من بعدها. فأمكث للحظات متردداً.

- ألن يأتي سعادته؟ أسأل.

- لا، يجيب بجفاء.

أغلق الباب. وتبدو لي أبواب هذه العربية المغلقة في إحكامها أشبه بأبواب خزنة فولاذية، وقد تكون أكثر سمكاً، أصعد بدوري وأمكث خلف المقود في انتظار التعليمات.

يُنزلُ هيثوردو الفاصل الزجاجي بين الركاب والسائق:

- قصر الاليزيه! يقول بلهجة أمر.

يا للحماقة. فتصعد الدماء إلى رأسي.

إذاً سيّداتي سادتي أنتم تقصدون الاليزيه! أشعر بالقلق
بعض الشيء^(*). ولماذا لا يلتحق القنصل بالركب؟ وبأي صفة يحلّ
السكرتير في مكانه؟

انطلق وقد أثقلت رأسي أطنان وأطنان من الأسئلة المريبة.

عند مروري بجناح جوزفين المح رأس بيروبيه الضخم. فهو
يلازم مركز المراقبة ريثما تغادر. وأرجو أن يوفّق بعمله. ذلك أنّ
رفاقي هم أوّل ضحايا هذه القضية!

لا اسمع الحديث الذي يدور في الخلف بسبب الفاصل
الزجاجي. ولكنّ عبر المرأة الارتدادية المقفّرة طراز فاد - ساتاناس
أتمكن من رؤية الراكبين خلصة.

لا يتبادل رفيقا الرحلة أية كلمة. فقد انتحت المرأة الشابة طرف
المقعد على أبعد مسافة ممكنة عن رفيقها. أمّا هذا الأخير فقد ارتفق
المسند القلاب ويبدو مطمئناً فخوراً ويلقي بنظراته اللامبالية على
سكان الضواحي الذين يهرعون فوق الأرصفة.

اجتاز منطقة «ديفانس»، ثم جادة «نوي» و«بورث ماييو»
وجادة «لا غراند آرميه». ثم ساحة «الايتيال»، فيطالعني
«الشانزليزيه» بكامل أبهته. وعند المستديرة انعطف يسرّة لأسلك
شارع «موبور سانت أونوريه» وأصلّ قبالة الاليزيه. محرس

(*) لم نعر في العربية على معادل أفضل لعبارة سان أنطونيو العربيّة في
الأصل: Un chouïa . (م. ع).

الجنرال(*) مضاء في شارع جان جيونو رتل من السيارات الفخمة، ويدخلها أجمل أزياء عليا القوم، يصطف أمام الباب وقد انهمك الحرس في زي الاحتفالات الرسمية في تنظيم مرورها. أتبع الرتل. وها أنذا بين سفير «كرواموازياء»(**) ونائب قنصل «بروكسينيتيا»(***) . يتقدم الرتل ببطء. وفي آخر الأمر اصل بالسيارة - ولأول مرة في حياتي - الى باحة التشرفات. تعرفت الموسيقى العسكرية النشيد «هاك، يا صغير، هذه شروى نقيز»(****). عمداً في اللباس العسكري يستقبلون الوافدين. وارى فوق مصطبة القصر كل ممثلي السلك المصاب بالقبض (على قولة بيرو): كبير وزراء تالبونجور، الكاردينال سلفمايدمان، أسقف بوسطن، سفير أبروتيسان، سعادة السفير ياتاموتوكيرويه على رأس الوفد الياباني، المونسنيور كوشتايبان، الموفد البابوي، السيد جول نابوليتان، عضو الاكاديمية الفرنسية، الاميرال سابورديه، البارون دو ميدو، الحاخام الاكبر دوبون، القس فاليريادو، السيد كاش هاندكاري، وزير الخارجية الاميركي، السير برنر بارثي، نائب السفير المساعد لبريطانيا العظمى، الرئيس فوينوزوف والاميرة إيفا دونكشايترو حاكمة بيليدو.

ويدوري أركان السيارة بمحاذاة درج المصطبة. يتقدم عسكري

(*) ديفول.

(**) شدة الاحمرار (كذا).

(***) مشتقة من القواد (كذا).

(****) لامانة النص نورد الاصل: «Tiens, Petit, voilà vingt sous».

من ذوي الرتب العالية ويفتح الباب ثم يؤدي التحية العسكرية ويمد
إلى الراكبة الشقراء يداً مقفزة بقفاز أبيض. ثم يشير علي أحد رجال
الحرس الذي يشبه الطاووس بأن أركن السيارة في المرائب الرئيسي
الخاص. فسمعاً وطاعة. نوافذ الاليزيه الواسعة تسطع بالأنوار.
حشد هائل. عسكريون في الخارج ومدنيون في الداخل. يدنو مني
أحد الزملاء (السائقين):

- هل أنت الالاباني؟ يسألني.

فاجيبه بنعم ولو مؤقتاً.

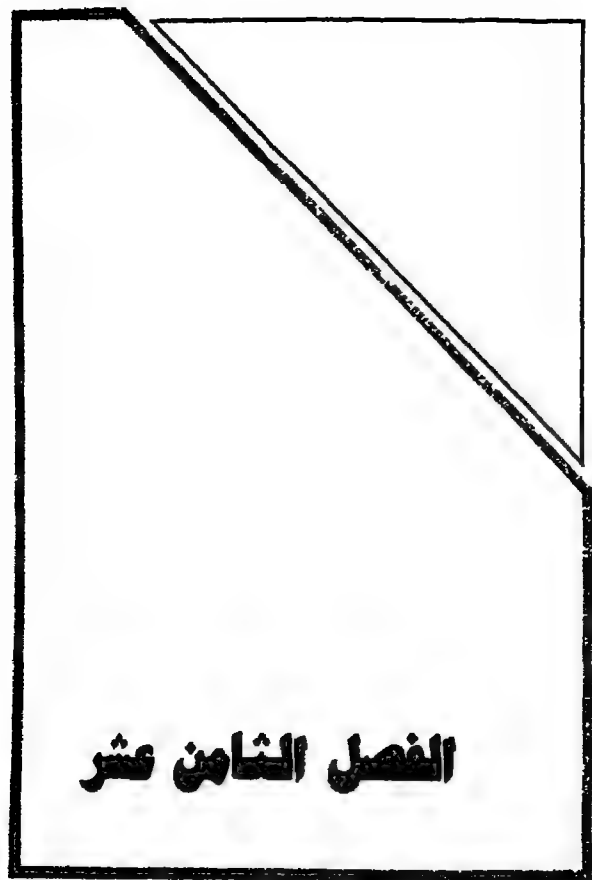
- أنا الآن مغربي.

لكل امرء من دهره ما تعود.

- أعرّف مخرجاً من هنا، فماذا لو خرجنا لاحتساء كأس؟ يقترحُ
سائق المغرب.

- اقتراح يصعب رفضه.

فنتوارى خلسة فيما يتابع الوافدون توافدهم، وتتابع الموسيقى
عزفها وتواصل الاليزيه إشاعة بهجتها الأليزيية.



بعد أن شربنا أربع كؤوس بوجولييه في حانةٍ في شارع أنجوي بعد
أن زوّدني رفيق الشراب بعنوان حانةٍ حيث بإمكانني أن أحتسي
الأنجو في شارع بوجولييه، أغادره للإتصال بالمنزل.

تردّ فيليس وتبدو لي على حافة الانهيار.

- السيد بيروبييه هنا برفقة آخرين، تقول. بينهم جريحان
أحاول تضميد جراحهما.

- أريد أن أتحدّث إلى بيرويا أميمتي.

- اغتبط. هكذا إذاً أفلح البدين في إنجاز مهمته.

يتناهى صوته الدهني فيقرع أذني.

- لقد أنجزت المهمة يا سان أنطونيو. إنها حملة اعتقال واسعة
يا ابن أختي! ولديّ خبر صاعق سيذهلك!

- أي خبر؟ انعقُ قائلاً.

- لقد عثرت على السيّد مورييرون.

- ما الذي دهاك أيها الفتى. كنا سوياً تلك الليلة حين...

ولكن لا، لقد أخطأنا بشأن هوية الجثة. ليس هو من أغرق في الكلس بل القنصل!

فأزمجر

— ماذا تقول!

— إنها الحقيقة «العارية» يا صديقي. أستاذك حي يُدزق وعلى خير ما يرام. ولكن ربما كنتُ أبالغ بعض الشيء في الصفة الأخيرة فهو متوَعك قليلاً بسبب الخوف والمعاملة السيئة التي تلقاها. فاصرخ.

— هيّا، اربو لي ما حدث بحق السماء!

— لقد اختلفوه من منزله كما توقعت أنت. انتظر قليلاً سأستدعيه لكي يكلمك. ليس في صحة جيدة ولكنه قادر على الكلام.

— مهلاً، وماذا عن الرجل الآخر؟

— الغوريلا؟ لقد جعلتُ وجهه مُسطحاً بضربة واحدة إذ حاول أن يقاومني. والآن تحاول أمك أن تصلح فيه ما يمكن إصلاحه وأحسب أنه يحتاج لقدرة ساحر لا لمهارة طبيب، فقد أصبح وجهه أشبه بلوحة لبيكاسو.

ثم يصرخ منادياً:

— هه! يا سيد موربيون! تعالَ وتحدّث مع تلميذك السابق!

فتناهى إلى صوت موربيون الواهن يشرح للبدین.

— يا صديقي الطبيب لا ينبغي أن تقول «تحدّث مع»، إنه تعبير مغلوط. فنحن نتحدّث إلى وليس مع...

- وتباً...! يقول بيرو معترضاً، وما الفرقُ بين الكلام والكلام؟

ينتزع موربيون السَّماعة من يده بحركة استيلاء.

- يا صديقي الصغير، يتمتم قائلًا، لا بدّ أن الشرطة تعاقب
المجرمين لكنّها تتغاضى عن جرائم لقتها!

- هالو، يا أستاذ، كيف حالك؟

- حالي مثل حال مَنْ أصيب برصاصة في عضلة ذراعه ومكث
ثمانى وأربعين ساعة في قبو بلا طعام وقد كَبَلَتْ يداه بشريط معدني.
أما الآن، وبفضل رعاية والدتك المستنيرة، أشعر بأنني في حالٍ
أفضل. بعد هذا كله ينبغي أن أعود إلى المستشفى وأمكث هناك
فهو المكان المثالي لِمَنْ بلغ سنّي.

- أخبرني قليلاً عمّا جرى.

- كنت أراقب فتياتك الالابانيين بواسطة المنظار وارتابوا بأمرى.
فأطلقوا عليّ النار وأصبحتُ في ذراعى. سارعتُ لإبلاغك بالأمر. ثم
جأوا إلى منزلي للتتَبُّع ممّا حلّ بي واقتادوني معهم. كلُّ هذا لا
يخرج عن المألوف.

يا له من صنديد، هذا المرءي! لقد استهوته المغامرة، استاذي
العزیز موربيون! لقد أصبح النقيب «تروي» بلحمه وشحمه،
صدّقوا أو لا تصدّقوا!

- لقد قال لي بيروبييه إن القنصل قد استحمّ في حوضٍ من
الكلس، فكيف له أن يعلم؟

- لأنني أخبرته يا صديقي الصغير. فلأوضح لك قليلاً: خلال
فترة استشفائي التي دامت شهرين كان بجواري في غرفة

المستشفى، مريضٌ أصمٌ وأبكم. وتعلّمت قراءة الشفاه بفضلها. فعندما كشف جماعة القنصلية أمري كنتُ أرى جيداً أنهم يتحدثون في أمور مهمة.

- كلّي آذان صاغية أيّها الأستاذ...

- طبعاً لم أتمكّن من فهم كلّ ما يدور بينهما بسبب المسافة وضعف النظر. ولكن أستطيع القول أنّ مجمل ما فهمته هو التالي: لقد قتلوا القنصل باطلاق النار عليه من منزلي. وهم يدبّرون خطة لقتل وزير خارجية الاتحاد السوفيياتي ورئيس الدولة ومن جهة أخرى...

ولكنني لا ادعه يتابع حديثه. أقفل الخط بسرعة وأهرعُ الى سائق السفارة المغربية لأسأله:

- هل يُشارك سفير الاتحاد السوفيياتي في الامسية التي تقام في الأليزيه؟

- هذه المسائية...! يقول متعتعاً، تُقام على شرفه!

أطلبُ فيشة أخرى من عاملة الصندوق وأعودُ الى الهاتف. وهذه المرّة أتصل بالخيار.

- ما جديّدك يا سان أنطونيو؟ أمل أن لا تكون قد اتخذت أي مبادرة من شأنها أن تُسيء الى مجريات القضية؟
- اسمعني جيداً يا كومة الخر...! أصرخ قائلاً. بين لحظة وأخرى سيتعرض رئيس الجمهورية ووزير الخارجية الروسي لمحاولة اغتيال.

- إذا كانت هذه احدى دعاياتك يا سان أنطونيو...

— قد تكون المحاولة جرت في اللحظة التي اكلمك فيها، أيها الرئيس. يجب أن تصدر أوامرك الفورية باعتقال سكرتير القنصلية الذي يمثل القنصل في حفل الاستقبال. فهو الذي سينفذ هذه العملية. يجب أن يُعتقل فوراً، أسمعني؟ فوراً. وبشيء من المرونة! اضعُ السَّماعة منهوكةً اتصَبَّ عرقاً.

— يا لسحتك الغريبة، أيها الرقيق! يقول «زميلي، السائق. هل أكلت اصداًف بحر فاسدة أم ماذا؟»
— إليّ بكأس من الويسكي! أقول للنادل. في كأسٍ مزدوجة، أريدها لشخصٍ مريض!

•

• •

بعد ذلك بنصف ساعة أجدني عند مركز الحراسة على أبواب الأليزيه. وصدّقوني إن شئتم، على قوله بيرو، ولكنّ الخيار كان هناك أيضاً. بلى، لقد تكبّد الاصلع العجوز مشقة الانتقال نظراً لخطورة الموقف. وأعجباه: انه يعلم إذا أنّ الشوارع موجودة والأشجار، وأنّ في العالم أناساً آخرين غير رجال الشرطة المتأهبين ابداً!

يدنو مني ويُمسك بكتفي ويُعانقني، بحركة استعراضية أمام الجميع.

— هوذا أيها السادة، يقول، الرجل الذي جنّبنا الكارثة. واستطيع الآن يا عزيزي سان أنطونيو أن أؤكد لك أن ترفيتك الى رتبة

كوميسير ممتاز باتت وشيكة. فعند ساعات صباح الغد الاولى
سيكون التقرير على مكتب الوزير...

بادرة لطفٍ لا تنسى أن يُعانتني العجز. فأروي له كيف عصيتُ
أوامره رغبةً مني في كبح حماسه المفرط. وبالكاد ينتبه. لقد أوشكت
الكارثة أن تقع وهو الذي لا يمتلك شعرةً واحدة فوق رأسه ما زال
يشعر بقشعريرة الخطر الداهم.

- انظر ماذا وجدنا في حوزته!

ويسحب من جيب سترته مسدساً ألياً محشواً حتى الفوهة
برصاصاتٍ من شأنها أن تشفي صداغ قطع من الفيلة.

- وما تعليق هيثورد؟

- لا شيء. ولن يتكلم.

- والمرأة؟

- إنها هنا. إنها زوجة القنصل وتطالب بولدها. لقد اختطفه
هؤلاء الإرمانيون لإبتزازها واخضاعها.

- إعمل على طمأننتها، فانا أعلم أين هو.

- وأنا أيضاً أعلم أين هو، يقول الحيزيون متفاخرأ.

ومراعاة لشأنه ومنصبه: اكتم قهقهةً هازئة تتشبث بفكي.



- هلاً دعوتني لتناول الطعام؟ يسأل بيرو. ويضيف بشيء من
الحسد:

- لا بأس إذا دفعَ مَنْ بات مُرشحاً لرتبة كوميستير ممتاز ثمن
وجبة عادية لأحد مرؤوسيه.

- أوكي، يا بني، إني أدعوك الى المطعم الالاباني عند ساحة
بيير.

- لقد طفع بي الكيلُ الالاباني!

- طلع بك الكيل وليكنك لم تتناول فيه طعام الغداء بعد، اقول
له بلباقة مُفرطة ذلك أني أشعرُ بارتياح مُذهل.

فيضحك. ذلك أن بيرو ليس صعب المراس ويكفي أن تسترضيه
بكلمة.

عند السلم تصادف العجوز.

- الأمور على خير ما يرام، يقول، لقد استعادت السيِّدة زوجة
القنصل ولدها وستعودُ الى بلادها. جرح السيد موبوي في طريقه
الى الشفاء و... الطقس مُشمس. الى أين أنتما ذاهبين؟
- إلى المطعم الالاباني عند ساحة بيير لك أن تراقبنا إن شئت،
أيها الرئيس؟

- للأسف، وقتي لا يسمح لي بذلك.

كانه صباح عيد. خفة في الأجواء وزحمة على أرصفة شارع
كومارتان.

- ولماذا تصرّ على الذهاب الى هناك؟ يستعلم بيرو.

وإذا امتنع عن الإيضاح، يردف قائلاً:

- بسبب وفاة الصبية، اليس كذلك؟ ما زال الأمر يُشغل بالك،
اليس كذلك؟
- بلى.

وهناك نولم لانفسنا. يطلب بيرو طبقاً من قُلْفِ السلطعون المقلية
بالثوم كمقبل، أما الطبق الاساسي فأرادَه رأس حمار أغبر باللوبياء
الحمراء. بالإضافة الى حساء جبنة بالسُكَّر الناعم كتحلية.
.. أعذرني لدقائق، أيها الأكل، أقول له، سأذهب لغسل يدي.
.. وأنا أيضاً، سأذهب لأبول! يقول فجأة.

نذهب الى المغاسل، ويدخلُ بيرو الى كابينة الرجال نظراً لأن
والدته قد زوّجته بكل اللوازم الضرورية لمثل هذه المناسبة. أنتظره في
الخارج متعمداً تبادل أطراف الحديث مع حافظة الملابس. عرفتني
على الفور ويدت منزعة. إنها كائن غامض وأسأل نفسي أحياناً
كيف يمكن لمثل هذه الكائنات أن تحيا. أحججها بنظرات ثابتة وكأما
ازداد ثبات نظراتي ازداد ارتباكها. وكأما ازداد ارتباكها ازداد
ثبات نظراتي، حتى أن أحدها لا بد أن ينفجر في لحظة ما، مثل تلك
الحرباء التي ربيخت فوق تشّورة اسكتلندية.

وفي آخر الأمر أبادرها قائلاً:

- يبدو أنك لست على ما يرام، يا صديقتي الرقيقة...

- ولكن لماذا أبدي...

- بلى، بلى. وان سألت عما أقول بهذا الشأن، فلا بد أنك تعانين
تأنيب الضمير.

فجأة تترقق دموع في عينيها.

واستعيدُ في ذاكرتي حقيقة ما جرى ليلة أمس الأوّل (التي تصادفُ غداة اليوم الذي يسبقها بمصادفةٍ مذهلة).

فيما كنتُ أرتدي معطفي المشمّع كانت الفتاة ياباكسا تدخُل الى كابينة النساء. وفي تلك اللحظة قالت لها حافظة الملابس شيئاً ما... حدث الامر بسرعة خاطفة فلم أعِره انتباهاً.

- ماذا قلت للفتاة؟

تكلّمت بصوتٍ هامس كأنني أسأل نفسي. متمتماً.

- ولكن...

- لا تحاولي الخداع وإلا ستناين جزاءك...

- لقد عرفتك، تقول...

- ماذا تقصدين، عرفتني؟

- لقد كنتُ أعمل كنادلة في مقهى يَقَعُ قبالة مكاتبكم.

- وهذا يعني؟

- ظننتُ أنّك تتعقب أثر الفتاة. فقد كانت تتردد المكان من حين

لآخر وتبادل أطراف الحديث. كنت أجدها لطيفة.

- تابعي...

- قلت لها أن تتوخّى الحذر.

أزفُرُ نفساً عميقاً لكي اتمالك لهاثي المتسارع.

- ماذا قلت لها بالضبط؟

- اعتذر ولكن...

- ردّدي أقوالك، بحق السماء!

فتقولُ متلعثمة:

- لقد قلت لها: «احذري هذا الرجل فهو ليس من تظنّين أنّك تعرفينه بالفعل». أنا آسفة... ولكن صدقاً كنتُ أحسب أنها اقترفت مخالفةً ما وأنك...

- لقد تسبّبتِ بموتها، أتمتِ قاتلاً.

- ماذا!

- من أين لك أن تفهمي. لقد كانت مُصابة بمرض في القلب...

- ولكن...

- وكأنت تعلم جيداً من أكون. وعندما أكّدت لها أنني لستُ من تظن أنها تعرفه بالفعل، حسّبت أنني أحد أفراد العصابة.

والزم الصمت. إذ لا حاجة للاستغراق في شرح الأمور لهذه الشمطاء المتعفنة. لقد أصيبت ياباكسا بصدمةٍ عنيفة بعد ظهر ذلك اليوم. وعندما قالت لها فردة الجورب القديم هذه إنني لستُ من تظن أنها تعرفه جيداً حسّبت أنني... ولكنّها أنا أكّدتُ نفسي، فعُذراً؛ إنه الانفعال. ذلك أن ياباكسا، صاحبة القلب الجريح، ما كانت لتحطم الرقم القياسي في العدو الذي سجّله ماتو سالم. ولكن مع ذلك لم تكن حماقة الشمطاء لتساعدنا!

صوت سيفون مجلجلا ويفتح باب الكابينة. يبتثق بيمر منها رائحة، واثقاً من نفسه، راضياً مرضياً.

- ليس لأنّ الأمر ممتع، يقول، ولكنّه مريح!

ويروح البدين يسأل دون أن يتوقّف عن مضغ طعامه:

– للمناسبة هل استطعت أن تعلم كيف قتل هؤلاء الأوغاد
القنصل؟

– لدي بعض التفسيرات.

– إذاً أخطرني بنصفها كيما أشبع نصف فضولي.

– إن بعض موظفي القنصلية كانوا ينتمون الى تنظيم مُتطرف
مكّلف بإحداث القلقة في أوروبا. وهدفهم: الحرب، الفوضى العامة!
يا للمخنثين! مع أن الحياة جميلة! يخور البدن غاصاً بأذن
رأس الحمار الاغبر باللوبياء.

– لقد خططوا للأمر بعناية بحيث تبدو الحادثة في نظر زوجة
القنصل والموظفين الآخرين على أنها من تدبير أطراف خارجية.
فالقائد الذي حاول تصفية الفتاة دانلا في كان قد تسأل قبل ذلك
الى شقة موربيون الشاغرة نظراً لموقعها الجغرافي...
– إذاً؟

– ربط شريطاً عند مسند النافذة ليشير الى وادونك هيثوردو أنّه
أصبح في موقعه...

– وماذا بعد؟

– كان القنصل يعقد اجتماعاً في مكتبه يضمّ: السيدة وزوجها
القنصل ووادونك بالإضافة الى موظفين آخرين...

– وبعد ذلك؟

– لقد أُردي القاتل بالقنصل أمام هؤلاء الشهود جميعهم. وعلى
الفور بادر هيثوردو الى قيادة العمليات. وأقنع الآخرين أنّه لا ينبغي
الإبلاغ عن الحادثة قبل إخطار العاصمة الالابانية بالامر.

فالحادث خطير جداً. فرضخ الجميع نظراً لخطورة الموقف. الامر الذي أتاح لهيثورديو أن يُسيطر على الآخرين وأن يحتل منصب القنصل الفعلي. وهكذا استطاع أن يُعين رجاله في المناصب القيادية وعندما أصبح سيّد الموقف احتجز زوجة القنصل. فهو يحتاج معونتها في تنفيذ خطته خلال حفل الاستقبال. إذ كان عليها أن تترأس وفد القنصلية، أوتدرك قصدي؟

- ليس هناك ما يدعو الى العجب لأنها كانت الرئيسة بالفعل! يقول بيرو معترضاً.

يبدو لي أنّ البدين شارد الذهن. كنتُ أعتقد أن روايتي هذه تستثير فضوله... إلّا أن رأس التيس الذي يحمله له أحكامه. ففي بعض ساعات النهار تجتمع خصائص دماغه وقلبه وعضوه في مكان واحد: المعدة.

- وما اعترض سير مخططاته، اتابع برغم كلّ شيء. (مراعاة للقارئ، المنتخب وليس لبيرو)، هو اطلاق النار داخل القنصلية الذي أودى بحياة القتاتل. وإذ فقد اثنين من عناصره اضطر الى الاستعانة باليد العاملة الأجنبية. ولذلك أعلن عن حاجته لسائق فتقدّمت لنيل الوظيفة، الامر الذي أتاح لي، في النهاية ...

أغرّز سكينتي، مغنيظاً، في خشب الطاولة.

- ولكن بحق السماء يا بيرو، إلّا أنّي تنتظر بدل أن تصغي!

- أرجو المذرة، قال المنتفخ، ولكن ثمة صهباء خلفك تثير في الدوار. وأحسب أنني سأنالها. فهي تنتظر إليّ باستمرار.

فالتفت الى الوراء وألقي نظرة فاحصة. ثلاثة أعشار الثانية

كانت كافية لأدرك حقيقة الأمر، أنا اللبيب... الخ. هناك فتاة أعرفها
تجلس الى الطاولة المجاورة، وهذه الفتاة ليست سوى الممرضة التي
اعتنت بآبن القنصل. تعرفونها جيداً، الفتاة التي تؤثر الفتيات على
أشدّ الأشداء من الرجال. وأكاد أغصُّ بلقمة الغومولكا.

- غير معقول! أقول لنفسي بالفم الملآن بالفعل. إنها ظاهرة غريبة
تلك التي يسمونها المصادفة!

تبتسم لي برقة. ولا يبدو عليها أنها من طراز النساء اللواتي لا
يُعرن الرجال اهتماماً إلا إذا هرعوا لحمل حقائبها، أو لمعالجة
صنبور حمامها.

- في مثل هذه الحالة، تقول، أرى المصادفة في هيئة رجل أصلع
ينال وسام جوقة الشرف وقد زرعت طاولة مكتبه بغابة من أجهزة
الهاتف.

ذبحت الاشارة اللمّاحة شرياني الأبهـر وجمّدت أوصالي حتّى
النخاع الشوكي.

- العجوز، أقول متلعثماً.

- هو الذي قال لي انكما تتناولان طعام الغداء في هذا المطعم.

وانضممت الى طاولتنا.

- انت تعرفينه إذأ؟

- إنّه أبـي!

فيفوق ذهولي ما قد بيديه منْ ذهولٍ النائم الذي يستيقظ فجأة
ويرى أن الطبقة الثالثة من برج إيفل تشاطره السرير.

- أبوك!

- ألا ترى أنه رجل! يتمتع البدين.

تضحك كبير. ولكن تدعى كبير بالفعل؟ أجل: تؤكد ذلك. لقد أقنعها الحيزبون بأن تلعب دور الممرضة. انه شديد البأس، اليس كذلك؟ ولا يخشى المخاطر. ولذلك ربما كان يُبدي مثل ذلك الحرص على تجنب أي هفوة.

- لقد جئتُ لأبدد ما أشعته بيننا من سوء فهم، تهمس كبير.

- أي سوء فهم؟

- بشأن... أوه... بشأن تصرفاتي. لقد حذرتني أبي وقال لي إنك كازانوفا وطلب مني أن اتحوط للأمر صوتاً لعفتي. فقناعته أنها معرضة للمخاطر أكثر من حياتي. وأقسمت له أنني سأحفظ المسافة بيننا. وتذرت بتلك الكذبة، أرجو أن لا تحقد علي.

اهز رأسي ببلاهة.

- لا، على الإطلاق.

يمسحُ البدين شفتيه الزفتين بمقلب ربطة العنق التي استخدمت مراراً لهذا الغرض، ويقول مفتبطاً:

- إنك أكثر حنكةً من أبيك.

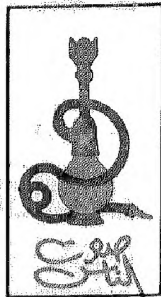
تستغرق عيناها في عيني الفتاة. فيسري في جسمي إحساس بالدفع أمل أن تشعر بمثل له.

- ماذا تفعلين بعد ظهر اليوم؟ أنعقُ قائلًا.

— ما تفعله أنت. تنقّ قائلة.



لا تصدّقوا إن شئتم، لكنّها وُفّت بالوعد!



استنجد موريون الاستاذ المتقاعد بتلميذه القديم سان
انطونيو بعد ان قرا عنه في الصحف انه اصبح محققاً جنائياً
ناجحاً.

فقد عاد الاستاذ موريون الى منزله بعد قضاء مدة شهرين في
المستشفى وفوجيء فور دخوله برائحة غريبة في الدار هي
اقرب الى رائحة البارود ورغم ان المنزل كان على حاله كما
تركه ولم يسرق منه شيئاً مما اثار شكوكه، بالاضافة الى
الرائحة الغريبة، ان رقاص ساعة الحائط لا يزال يعمل مع
انه تركه منذ شهرين ولا يفترض ان يستمر اكثر من ثمانية
ايام، فما الذي جرى في منزل الاستاذ؟ وماهي الاحداث التي
تعاقبت؟



1855131749